فلسفة الإسلام فى السلم والحرب

من المنظور الاجتماعى

إعداد

دكتور

د. عبد الفتاح محمد العيسوى

الأستاذ

محمد صالح الدرازى



تليفاكس: ٠٣/٥٢٧٤٤٣٨ الإسكندرية

فلسفة الإسلام فى السلم والحرب

من المنظور الاجتماعى



الناشـــــــــر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

العنـــــــوان: بلوك ٣ ش ملك حفنى قبلى السكة الحديد - مساكن درباله - فيكتوريا - الإسكندرية.

تليفـــــاكس: ٥٢٧٤٤٣٨/ ٠٠٢٠٣ (٢ خط) - موبايل/ ٠١٠١٢٩٣٢٣٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية.

E- mail

dwdpress@yahoo.com
dwdpress@biznas.com

Websitc

http:/ www.dwdpress.com

عنوان الكتاب: فلسفة الإسلام فى السلم والحرب من المنظور الاجتماعى

المؤلـــــف: إعداد. د. عبد الفتاح العيسوى، أ. محمد صالح الدرازى

رقـم الإيـداع: ٩٢٣٥/ ٢٠٠٣

الترقيم الدولى: x - 358 - 327 - 977



فلسفة الإسلام فى السلم والحرب
من المنظور الاجتماعى

إعــداد

دكتور

عبد الفتاح محمد العيسوى

الأستاذ المساعد بكلية الآداب والعلوم

جامعة سبها ليبيا

الأستاذ

محمد صالح الدرازى

الأمين المساعد للشئون العلمية

بكلية الآداب والعلوم - جامعة سبها

الناشر

دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

الإهــــداء

-إلى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

-إلى رواد الإنسانية، وحملة مشاعل التنوير والتثقيف.

-إلى أنصار الحق، ودعاة الصدق، وعمالقة الفكر والوعى.

-إلى الزعماء، والمصلحين، وعلماء العالم وفلاسفته، وأساتذة الأمم والشعوب فى كل زمان ومكان.

-إلى المكافحين المناضلين فى سبيل القضايا الإنسانية الكبيرة قضايا الحرية والكرامة والحق والعدل والمساواة والإنصاف.

-إلى المجاهدين الأبطال فى كل معركة وملحمة شريفة إلى هؤلاء جميعًا.

نهدى هذا العمل المتواضع

بسم الله الرحمن الرحيم

ما نتأسى به من القرآن الكريم

*(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) البقرة ٢٠٨.

*(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) المائدة ١٥-١٦.

*(يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا) النساء ٩٤.

*(لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون) الأنعام (١٢٧).

*(والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) يونس (٢٥).

*(هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) الحشر (٢٣).

*(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) الأنفال (٦١).

*(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) النساء (٩٠).

*(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) محمد (٣٥).

وخير ما نهتدي به من السنة النبوية المطهرة قال ﷺ

-"أفضل المؤمنين إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده وأفضل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وأفضل المهاجرين من هجر ما نهى الله تعالى عنه وأفضل الجهاد من جاهد نفسه في ذات الله عز وجل". رواه الطبراني عن ابن عمرو.

-"أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت لا فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السموات وما في الأرض فقال : يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت : نعم في الكفارات والدرجات والكفارات : المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات وإسباغ الوضوء في المكاره قال : صدقت يا محمد ! ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه وقال : يا محمد إذا صليت فقل اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني وتتوب علي وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون والدرجات : إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام". رواه السيوطي في الجامع الصغير عن ابن عباس.

-"إذا صليتم فأقيموا صفوفكم ثم ليؤمكم أحدكم فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا وإذا قال (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقولوا : آمين يحبكم الله وإذا كبر وركع فكبروا واركعوا فإن الإمام يركع قبلكم ويرفع قبلكم فتلك بتلك وإذا قال : سمع الله لمن حمده فقولوا : اللهم ربنا لك الحمد يسمع الله لكم وإذا كبر وسجد فكبروا واسجدوا فإن الإمام يسجد قبلكم ويرفع قبلكم فتلك بتلك وإذا كان عند القعدة فليكن من أول قول أحدكم التحيات الطيبات الصلوات لله السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وإلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله". رواه أحمد عن أبي موسى.

-"أطب الكلام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام ثم أدخل الجنة بسلام". رواه ابن حبان عن أبى هريرة.

-"عن أبى هريرة قالﷺ أفشوا السلام كي تعلوا". رواه الطبراني عن أبي الدرداء.

-"اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام أحينا بالسلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام" رواه مسلم.

مقدمة

خلق الله الإنسان فى هذا الكون وسخر له الحياة وأمده بطاقات وإمكانيات من الوعى Awareness [1] والوحى والإدراك والمعرفة وسائر منافذ الحس ومزكيات الروح والنفس وهيأه لتحمل الأمانة واعده لتلقى الرسالة وصنعه على عينه لعمار الدنيا والاستخلاف فى الأرض والنزوع دائمًا إلى السماء. وأمده بحشود ووفود من وسائل البقاء وأسباب الخلود. وأطلع في أفقه وسماواته رسالاته وإشراقاته ممثلة فى الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. كى يرشدوا الضال ويهدوا الحائر ويرودن السبيل ويخططون معالم الطريق. ولما كان الإنسان هو بيت القصيد والمطلب الأسمى فى هذا الوجود ضرورة أنه أكرم خلق الله على الإطلاق مصداقا لقوله تعالى "ولقد كرمنا بنى أدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا"[2] كان لابد أن يكون هو قطب الدائرة ومحور الارتكاز فى رسالات السماء ومفهوم الشرائع ودعوة الديانات وكان كذلك حقل التجارب الخصيب الذى تحرثه الأنبياء والمصلحون من رواد الإنسانية بشرائعهم ودعواتهم ثم يحرثونه بعد ذلك بتعاليمهم وصبرهم وكفاحهم وجهادهم . وكان بالتالى هو "الترمومتر" الصادق الحساس الذى ينفعل دائمًا بكل ما يجد فى هذه الحياة وما ينبض به خافق الكون وضمير الوجود وما يأتى به الآتى على صفحات الغيب ومآتى الأيام لذلك كان لابد أن يشغل هذا الإنسان ذهن الزمن ويحل بؤرة الشعور فى وعى الحقيقة وخاطر الواقع ويحل فى السويداء من قلب الديانات والشرائع التى يأتى بها الله[3] وتنزل من السماء ولما كان الإسلام هو خاتمة المطاف ونهاية الشوط فى شرائع الله ودياناته. وكان هو جميعها وجماعها وجوهر الحقيقة فى كونها وكيانها وملتقى المفاهيم العامة فيها. كان لابد أن يحقل كثيرًا جدًا بهذا الإنسان ويسخو فى معاملته وينظم حياته وييسر له طريق المجد ويرصف من أحله سبيل العيش ويرسم الاتجاه ويخطط المقاصد والغايات ويصمم النتائج

والمقدمات ومن هنا أحاطه بكل أسباب الرعاية وحماه بجميع ألوان العناية والوقاية وهيأ له حياة ماتعة حافلة بكل ألوان الخير والحب والتسامح والرحمة والصفاء والهناء. ولما كان الناس قد أعماهم الغرور ولج بهم الطمع وركب رؤوسهم الشيطان وجرفتهم المادة وضحكت عليهم المدنيات المزيفة الملحدة وتنكبوا الطريق وضلوا المعالم وتأهت بهم السبيل وجهلوا أو تجاهلوا قدر الإسلام وأثره ومجده وخطره في إسعاد الإنسانية ورفع منار البشرية والاتجاه بها إلى شاطئ الأمان ومرفأ الحب والحنان بعيدا عن الحرب والضرب والمجازر والمواجع.

لأن الرواسب والأوضار والمخلفات والأوزار التى ألصقها به الضالون من أعداء الديانات وأدعياء العلم وأغنياء المعرفة وتجار المبادئ وسماسرة المذاهب والعقائد.

فجلوت في فلسفة الإسلام في السلم والحرب الكثير من مفاهيم الدين من أجل الواجب نحو دين ربى ودينى وضميرى ووطنى وإنسانيتى بدأ الإنسان حياته على ظهر هذه الأرض وهو يحاول ما استطاع أن يعيش آمنًا مطمئنًا لا يروعه شئ ولا يحول بينه وبين ما يسعى إليه من رغد وأمن واستقرار وسعادة حائل ما، وكانت محاولات ذلك الإنسان تتضاعف كلما نما عدده، وتكاثرت أفراده، وتعقدت مشكلاته، ومن ثم عرفت البشرية عبر مراحل تاريخها المختلفة فلاسفة وعلماء عكفوا على وضع التعاليم والمبادئ والأسس والقيم التى تكفل للمجتمع الإنسانى كل ما يحفظ عليه آدميته وكرامته واستقراره وأمنه واستقلاله وحريته ولم يصل هؤلاء الفلاسفة والعلماء سواء في القديم أو الحديث إلى تحقيق الحلم الذى راود خيالهم[٤]؛ لأنهم من جهة لم ينطلقوا في تفكيرهم من مبادئ ثابتة غير متأثرة بالأهواء الذاتية، ولا تعكس ثقافة الزمان أو المكان، ولأنهم من جهة أخرى كانوا مثاليين مسرفين، وكأن كلا منهم قد جلس في برجه العاجى، وأمسك بقلمه ليسطر به فوق قرطاسه أسسًا لمجتمع فاضل دون معايشة لمجتمعاتهم، ومعرفة دقيقة بحاجات كل مجتمع ورغباته وظروفه وما يناسبه من إصلاح، وما يسير به رويدًا رويدًا نحو الكمال[٥].

والطريق المثلى إلى المجتمع الذى يسوده الحب والإخاء والوئام والانسجام والسلام، مجتمع الفضيلة والعدالة، والتكافل والتعاون على الخير والبر، مجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا فهو الذى جاء به وحى السماء "ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إننى من المسلمين"(٦).

لأنه من لدن من خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، كما يعلم ما به صلاحه وفلاحه واستقامة أمره وسعادته فى الدنيا والآخرة. لقد كان من رحمة الله بخلقه أنه لم يدعهم - على ما منحهم من طاقات فكرية - إلى أنفسهم يضطربون فى الحياة على غير هدى، وإنما أرسل إليهم أنبياءه ورسله مبشرين ومنذرين "الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا، ماكثين فيه أبدًا"(٧).

وتتابع هؤلاء منذ آدم عليه السلام إلى خاتم المرسلين محمدﷺ وكان ما بعث به هذا النبى الأمى هو الصورة الأخيرة والكاملة لبناء المجتمع الإنسانى إلى أن يقدم الناس لرب العالمين، ومن هنا كان للقرآن الكريم دعوة الله إلى الناس كافة، وكان صالحًا للتطبيق الدائم، وكان الكتاب السماوى الوحيد الذى حفظه منزله من التحريف والتبديل، وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. منارًا للقوة والعزة والحياة الإنسانية الكريمة.

وكانت الآثار العلمية التى قدمها علماء الإسلام فى الماضى والحاضر محاولات طيبة على طريق فهم القرآن والكشف عما تضمنه من قواعد ومبادئ يتأسس عليها المجتمع الذى يمثل الخيرية والقدوة والأسوة فى كل مجال من مجالات الحياة النافعة.

وقد آثرت أن أحاول محاولة متواضعة فى هذا المجال، مجال فلسفة الإسلام فى السلم والحرب من المنظور الاجتماعى.

فى بناء المجتمع الإنسانى بناء متكاملاً لا يعرف الإفراط أو التفريط، وبخاصة ونحن نعيش عصرًا تتصارع فيه المذاهب الوضعية. ويكثر فيه الجدل(٨) حول

ما ينبغّى أن يكون؛ درءاً للكارثة التى ستبيد البشرية إبادة كاملة إلا إذا تداركها عناية الله. آثرت أن أقدم هذه الدراسة التى تتلمس الطريق الصحيح نحو علاج الأمراض المتباينة التى تفتك بالحياة المعاصرة فتكًا ذريعًا، وفى الوقت نفسه تبنى المجتمع الإنسانى على دعائم راسخة من القيم والمثل التى لا تتنافى مع الفطرة، ولا تنبو عن الواقع، ولا تسبح فى عالم من الأحلام والأوهام، وتحقق للإنسان فردًا وجماعة فى كل زمان ومكان ما تصبو إليه نفسه من الطهر الروحى والمادى، ليعيش فى دنياه قرير العين، منيبًا إلى خالقه فى كل ما يأتى ويذر، وليفوز فى الحياة الآخرة بجنة عرضها السموات والأرض. أعدت للمتقين.

ذلك لأنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها وأعنى بها الأمة الإسلامية.

ونحن ورثة هؤلاء الأفذاذ وعلينا أن نتمسك بفلسفتهم فى الحياة وهى الفلسفة القرآنية حتى نحتل مكانًا مرموقًا تحت الشمس فوق الأرض وخاصة ونحن نعيش فى عصر يأخذ من العلم سلاحًا ومنهجًا وسلوكًا وعلينا نحن العرب والمسلمين فى كافة أرجاء المعمورة أن نتعاون ونتماسك ونتحد وأن نتجاوز كل الخلافات بيننا وأن نفكر فى من يتربص بنا ويحاول فك عرى المحبة والمودة والبر والإحسان والعفو والمغفرة والبذل والعطاء والتضحية والفداء فى سبيل إعلاء كلمة الله فى الأرض.

الفصل الأول التمهيدى

*لا يصلح أمر أمة إلا بما صلح أولها

فالمجتمع المعاصر : لا يشك عاقل فيما يعانيه هذا الجيل من الاختلال والقلق والاضطراب والصراعات بكافة أنواعها. يتشابك في طغيانه وامتداده فلا يكاد يخلو منه على وجه المعمورة مكان.

وها هي ذي النزعات المتشابكة القائمة على قدم وساق من هنا ومن هناك فيما بين قطر وقطر وأمة وأخرى وشعب وأخر. وثقافة وأخرى. وهكذا حتى بلغ الأمر في المجتمعات البشرية المعاصرة مبلغًا لم يقتصر فيه على الطوائف والجماعات والدول والشعوب بل تجاوزها جمعيها إلى الأشخاص والأفراد وجر الجميع إلى ميدان الصراع والنزال وابتلاهم بالشرور والحيرة والاضطراب والقلق، فطفحت الساحة البشرية المعاصرة بما دب في البيت والأسرة والمجتمع والجماعة .. وتعرى حال المجتمع الإنساني فلم يبق من تجسبه صحيح الحال صالح البال.

وتلك حالة لا تترك لذي عينين أن ينام والمرض يستشري والخطر يتهدد وشبح الدمار يتوعد .. اللهم إلا أن يكون في عداد الذين قال فيهم الحق تبارك "والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم"[٩].

وهذه الأمم والشعوب التي تستقبل وتصدر الفساد الخلقي والانحلال الغريزي وترفض كل ما هو طمأنينة وثبات في الفضيلة وتتمرد على كل ما هو رباني سوى في طريق الفطرة.

وهذه البراعم الناشئة التي تغذى وتنشأ وهي تنمو على الظلم والقساوة والغشاوة من الخداع والكذب والمداهنة والغش والإيذاء والتعذيب والخيانة والغدر والاحتكار والاستغلال وما على هذا الدرب من موارد المآثم والمغارم والفتن والمحن مما يوسع ساحة المباذل والمفاسد لتنصب شراكها ويقع في شباكها الأفراد ويأتيها الجماعات في سلوكهم الشخصي والقومي وعوائدهم البشرية والاجتماعية.

وهذه الدول المتحضرة والولايات والاتحادات المتمدينة في هيئاتها الاجتماعية وسلوكها العام وهذه الطوائف والشعوب المتطلعة يشيع فيها من المآثم والمجاهرة بالمعاصي ما يدخل بسببه السجن العديد من أبنائها وبناتها .. وقد أسلمت قيادها لأكابر مجرميها ولأهل المكر والخديعة فيها يتولون زمام الأمة فانعكست بذلك القيم واختلت المفاهيم والموازين، وظل بعضها يلعن بعضًا ويكذب بعضها على بعض، حتى لقد أسود وجه الأفق وتدنست ظلاله بما يشيع فيها مما يحمله الأثير، وتبثه الإذاعات آناء الليل وأطراف النهار.

وكأني بأهالي تلك الأقطار وسكان القارات قد أحالهم الحقد الاجتماعي - إن صح هذا تعبيرًا - إلى قطعان من العصابات وقطاع الطرق يعبثون بمقاليد البلاد

ومصانر العباد وهم يعبثون فـي الأرض فسادا، ولا يكاد الواحد منهم يخجل حين يذيع (مسموعا أو مرئيا) ذنوب ومثالب غيره بينما يكون هو غارقا لأذنيه في حمأة السلب والهدم والتخريب.

وإن تعجب فعجب أن يستعيروا لباطلهم لبوس الحق يتزيون به للمخدوعين وأن يغيروا على حقائق الدين والقيم من الخير والعدل والإنصاف فيه.

ويظهر أن آصرة الظلم الاجتماعي والانحلال الخلقي، في رحاب الشرك وما يشوهه من الديانات السماوية، يظهر أن ذلك النحو وما على شاكلته قد جعل من أحزابه وطوائفه حربا جماعية لإيقاد نيران الفتنة والتباغض بين الأفراد والجماعات، يدفعها إليها ويربط بينها الحق على القرآن الكريم[10] وأتباعه الذين يقيمون مجتمعاتهم على عبادة الله الواحد والعمل بمنهاجه الحق ولا بأس فقد أخبر الله هذه الأمة بأن الأذى سينصب عليها من عباد الأحجار ومن أهل الكتاب في آن واحد ووصاها بأن تتذرع بالصبر والثبات أمام المتحاملين عليها، فقال : لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور"[11]. وأي خير يرجى من وراء هؤلاء الذين ينسون ربهم ويكفرون بالحق ويلينون في أيدي الدجالين، وذلك نفس ما كانت تعانيه دنيا الناس من قبل بعثة عبد الله ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه من بؤس وحيرة وألام نفسية وحسية، ينوء بها صدر الحليم، ويبذر أشواكها كل شيطان رجيم "من الجنة والناس".

ومما زاد الطين بلة، أن تدور معارك الخراب والتدمير وتشتعل نيران الإبادة الجماعية بين أبناء آدم لحساب المتناقضين (مع وعليك).

وكأني بالمجتمعات الإنسانية وقد أصيبت بشلل في التفكير أو غلب عليها مرض فقدان الذاكرة: فممنوع الأمس هو مباح اليوم ومحرم اليوم حلال الغد، وهكذا قد شاع عمى الألوان فما عاد الناس شرقا أو غربا يفرقون بين لون وآخر وكأني بالأرض قد أقفرت من ذوى العقول والأفئدة .. (وقد سوى العطب في قلب شجرة الحضارة الإنسانية حتى اللباب) .. دون أن تجد بعد النطاسي المعلم الذي يتداركها بالعلاج ويتدارك انتشار عدواها بالوقاية. والذي لا يشك فيه من له مجرد إطلاع واسع على التاريخ البشري هو أن تفشي الفساد الاجتماعي، لا يجد حقله الخصيب ويهزم المجتمعات الإنسانية حتى يكون قد بلغ من الأفراد غايته وأخذ بمجامع نفوسهم من الداخل .. إذ أنه لا يتأتى أبدا أن يسلم أولو البر والنهى قيادتهم، ونيابتهم ويضعوا مقاليد أمورهم ومقادير حياة أممهم في أيدي من يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

وإذا كان ذلك هو المنحدر الخطير الذى انزلقت إليه الشعوب والأمم بمستوى عالمى. وقد انطلق لتباركه هيئات ومؤسسات جماعية على نطاق واسع فإنه ليدل بذلك على أن التقدم التقنى فى ميادين المعرفة المدنية لم يستطع أن يقدم للانحطاط الخلقى والفساد الاجتماعى والتبلد العاطفى أية يد تعالج، أو توقف عدواه.

وللحقيقة والتاريخ فإن البشرية لو يستمر بها هذا الحال لأوشك أن تتغشاها قارعة بالظلام والخمول إلى مدى مديد.

وبالنظرة الفاحصة المتأملة يمكن رؤية الشكل الذى لا يزال النوع الإنسانى يتعامل معه ويستريح إليه من هذا الجانب أو ذاك، كما يمكن التعرف على الأفكار الرائجة له أو عليه أو بسببه.

ولعله مما ييسر وضوح الرؤية بهذا الشأن هذه الإذاعات فالإعلان والإعلام والنشر القائم على قدم وساق وهذا الزخم منه وهو لا ينصرف ولا يكف ولا يجف ولا يتوقف جريانه وسريانه لحظة واحدة.

ومن خلاله يظهر أن السواد الأعظم من البشر لهم تصور مشوش عن وجود الله واليوم الأخر، وهو تصور له تأثيره فى السلوك والبناء الاجتماعى وفى العلاقات العامة، وبه تورط هذا السواد فى ألوان من الشرك الخفى أو الجلى بنسب متفاوتة تتقارب أو تتصارع وهى توزع سلطان الإله المطلق على وفق أهوائها ورغباتها ونزعاتها فى شؤون الحياة. وإليك على سبيل المثال :-

لون يبدو وكأن إلهه يتصوره قد ضمن له الفلاح والنجاة وإن سرق شعوبًا بأجمعها فى وضح النهار واستعبد أممًا بأسرها تحت الشمس. وهذا لون تشفع فيه السلطة المشتركة، وتستغفر لمن يرتكبون السيئات ولمن يطلبون الحاجات بواسطته من الرب الأعلى ..

وعلى درب هذا التصور وذاك ظهر من ينكر أصل الإيمان ومن يمارس فى حقيقة النبوة وإمكانية الوحى - ومن يتساءلون عن معنى تحريم الديانات للعدوان والظلم والبطش بمقدرات الشعوب والأمم واختلط الحابل بالنابل.

وكلما تابعنا المسير، فى درب ملاحقة وملاحظة ما عليه العالم المعاصر والآداب الاجتماعية والسلوك[12] الإنسانى فإننا نشاهد ألوانًا وأنماطًا من الأفكار التى خلفت الفطرة الإنسانية وحجبت عطاءها فى نفس الإنسان ..

فهناك الذين يصفون الصلوات الخمس المفروضة بأنها مضيعة للوقت ومشغلة عن الواجبات الحياتية.

وهناك من يستنكف من التذكير باليوم الآخر ويظن الحديث والمناقشة حوله سمة من سمات الرجعية والتعطيل .. إلخ .. إلخ .

ولست أنكر أن تخلف المسلمين الحضارى هو الذى ساهم بصورة مباشرة فى إتاحة الفرصة للمردة والمناهضين للحياة الإنسانية الشريفة، أن ينطلقوا وهم ينفثون سمومهم لدرجة استطاع بها المد الحاقد صناعة وتقديم من لا يعترفون بمكانة القرآن ممن نزل القرآن بلغتهم(١٣)، فى وقت أصبح التفكير الإسلامى يتأرجح بين مختلف المذاهب تتنازعه التيارات الفكرية والأهواء والنزعات، حين شرد به رواده عن الجادة، وإذا بالحضارة الإسلامية المترامية يصيبها الاضطراب وما يوقف مدها ويضلل سعيها(١٤).

ولست هنا بصدد التاريخ لتطور الفكر الإسلامى ورسم الخطوط البيانية لصعوده وانحداره .. وإنما أود الإشارة إلى أن المسلمين قد وصلوا منذ بضعة قرون إلى درك سحيق استفحلت علله فأصابت كيانهم بما يعانونه من غواية وانحراف، وشقوة واضطراب، الأمر الذى تسبب فى صرف الإنسانية عن النظر فى كتاب الله الحكيم وهى بأمس الحاجة لعلاجه ما تعانيه من صراعها وشرودها وحيرتها.

إن العالم الذى كان يرمق المسلمين الأوائل وكأنهم نجوم الاهتداء السارية فى رجنة الليل ينيرون للناس دروب حياتهم، أصبح يرى المسلمين اليوم وكأنهم قطعان مشردة فى السفوح تتراجع أمام الذئاب المطاردة فى ذل وانكسار .. وأصبحت حضارة الإسلام لا تغرى أحدًا بالانتساب والانضمام إليها، والسبب هم المسلمون الذين اتخذوا هذا القرآن مهجورًا وهم ينتسبون إليه انتساب الابن العاق الذى يجاهد بالانتساب لأبوة فريدة فذة ادعاء لا ترى فى أفعاله التبعية لأعداء الإسلام ولقد استغل أعداء الإسلام هذا الجانب :

أ - فى تجسيم مظاهر ضعف المسلمين وحملها على الإسلام.

ب- فى نشر الأباطيل حول شريعة القرآن الكريم فى تصوير الإسلام على أنه دين العنف والدماء.

جـ- فى تصوير مزايا القرآن الاجتماعية على أنها سبب عيوب المسلمين.

د - فى اتهام القرآن يشل قوى الإبداع والعبقرية بين أتباعه، ناهيكم بمجالات قطع الطريق على الفلسفة القرآنية حتى لا تتسرب روحها خارج ديار المسلمين، ثم حشد الجهد المكثف لإفساد الأسرة القرآنية وإثارة الشكوك فى صلاحية القرآن الكريم لإسعاد أسرته أو امتدادها؛ تلك الشكوك التى مكنت للوهم والخرافة من أن تنتشر أو تعمق جذورها والتى أتاحت للباطل وللتشويه أن يجدا الاستعداد فى نفوس الناس. وإلى جانب ذلك استغل أعداء الإسلام تفوقهم التقنى

واتخذوا من تخلف المسلمين الحضارى[١٥] ينمـون مـن خلالها الوهـم والخرافة فـى داخـل صفـوف الإسلام وهـم يتساءلـون فـى خبـث : كيـف يمكـن أن يبقـى المسلمون على قرآنهم منهاج حياة، وقد اكتشف الغرب الكهرباء وهو مـع الشرق فى سياق غزو الفضاء؟ كيـف لا ينخلـع المسلمون مـن تاريخـهم وتقاليدهم وهـم يستوردون حاجاتهم وقوانينهم من بلاد غير بلادهم ؟! .. وهكذا.

الأمر الذى لا يترك خيارًا للمعنيين بالفكر والتوجيه القرآنى[١٦] إزاء تصحيح المفاهيم المغلوطـة التى لا تفرق بين القرآن فى مبادئه وتعاليمه لتصحيح الحياة وترقيتها وإسعادها وبـين أعمـال المسلمين مـن وقـت أن اعتنقـوا الإسلام إلى اليـوم، حتى يتبين الرشد من الغى.

كيف المخرج ؟ : بتصحيح هذه المفاهيم وبالرجوع إلى مدلولاتها الأولى فى مصدرها الأول كما أراده الله تبارك وتعالى ومن خلال القدوة العملية التى قررها سبحانه فى عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه. بذلـك كلـه يمكـن مدافعة ما لحق بنفوس المسلمين وعقولهم من تصورات خارجة على كيانهم القرآنـى. وتظهر إيجابية هذا التصحيح عندما يصاحبه توضيح موقف القرآن من المشـاكل الاجتماعيـة والدوليـة والآداب التـى كـان إسـاءة فهمها سـببًا فـى ضعـف روح المسـلمين العامـة وانفراط علائقهم بأنفسهم وانهزامهم فى علاقاتهم الخارجية.

أن المسلمين فى داخل بلاد الإسلام يودون صادقين العودة للنهج القرآنى السوى الذى يحل مشاكلهم ويعالج قضاياهم وينصفهم فـى حياتـهم، كما يتلفـت غير المسلمين - ذات اليمين وذات الشمال يقلبون وجوههم فيمن حولهم وفيما حولهـم: بحثًا عن المنقذ والمخلص ممـا يتهدد العـالم فـى حياتـه العامة والخاصـة[١٧] وحـروب ودمار واستعمار للشعوب واستلاء على ضرار الغير ... ولن يكون هذا وذلك بغير تجلية حقائق القرآن الكريم والبدء من حيث بدأ القرآن الكريـم وبنفس الفلسفة التـى أنقذ البشرية من الظلمات إلى النور منذ عصرها الأول، ناهيك بأن يد القرآن لما نزل على الإنسانية وفيـها حتـى الآن وإلى الأبـد .. فهى ملحوظـة لديـها وفيمـا بـين أيديـها مـن تسخير وسـائل الحيـاة وقوانـين الكـون لصالح البشرية أجمـع لأن القـرآن وحـده هـو الذى فك العقل من أسره وأطلقـه مـن عقالـه ليعمـل فيمـا أتاحـه وسـخره الله لـه قال تعالى "وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه إن فى ذلك لآيات لقـوم يتفكرون[١٨] .

وعندما يكون العرض الجيد والطيب والأمين لأمراض العالم من قبل القرآن الكريم ومعادلتها بمـا يتردى فيـه الإنسـان مهمـا امتـد بـه الزمـان، وبالأسـلوب الـذى

يتمكن به إنسان العصر من مقارنة علله بعلل البشرية في تاريخها[١٩] (فالإنسان هو الإنسان) وعلله النفسية والاجتماعية هي هي، وإن تعقدت أو تغلفت بغلاف عصرها..

وعندما يكون ذلك العرض مشفوعًا وملاحقًا بالخصائص القرآنية لبناء المجتمعات وبنفس الأسلوب والطريقة التي يعالج بها القرآن الكريم أمراض البشرية الطارئة والمستعصية عند هذه وتلك سيدخل الناس في دين الله أفواجًا ويكون نصر الله والفتح .

ذلك أن هدايات القرآن الكريم من لدن رب العالمين، وهي متسمة بالشمول والإحاطة وهي لم تعقم عند حادث ولن تبخل بعلاج شامل وكامل، لأن أصولها وفروعها قد قدرها خالق الكون وواهب الحياة، لتصاحب المسيرة الإنسانية في الأرض بالطول والعرض إلى آخر الدهر وقد جعل فيها ما يفتقر إليه العالم من رشد وطهر، وطموح Aspiration وامتداد واستقرار.

وكما قدر الله وقرر فلن ينزل من بعد القرآن الكريم وحي ولن يجئ من بعد عبده ورسوله الأمي العربي الأمين صلوات الله عليه رسول. إذ لا معنى لذلك وفي القرآن الكريم من الشمول والإحاطة والإجابة على كل ما تحتاجه البشرية في كل زمان ومكان.

فخير للناس أن يتوبوا لهذا الكتاب الحكيم وينزلوا على حكمه، ويتباحثوا حوله بدلاً من أن يلهثوا في تيه السراب الخادع، وتدمى أقدامهم التجارب الفاشلة والمخططات الباطلة قال تعالى "وتمت كلمت ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم"[٢٠].

وإذا كان لمتحامل أو مستفسر بعد ذلك أن يقول : إن الإسلام الذى قرأناه ونقرأ عنه في بحوث القرآن وعلومه المطولة عبارة عن نظام مثالي أو بتعبيرهم الأخر: نظام خيالي .. وإن تاريخ الدنيا لم يعرفه في غير الخلفاء الراشدين والأصحاب المهديين ومن بعدهم ماجت الدنيا بالأحداث والفتن.

وهذا شئ يمليه الجهل بطبيعة القرآن الحكيم والهدى النبوي السوي، لأن الذين عاشوا بتلك الهداية يقودهم عطاء القرآن ألف عام أو يزيدهم أنضر أهل الأرض عيشًا وأرقاهم فكرًا وأعلاهم مستوى في وقت كانت فيه النصرانية واليهودية والوثنية والوجودية من خلفهم بيقين وهم يرون الحياة الإسلامية طليقة هادية وقوة ظاهرة وقاهرة[٢١].

وإذا كان المسلمون بشرًا، (وكل ابن آدم خطاء) فلم يحتفظوا بالذروة التي رفعهم الله إليها، ولم يلتزموا بفلسفة وبتعاليم القرآن في السلم والحرب التي شرفهم الله بها .. فهم لم يهبطوا إلا بتفريطهم ولم يسقطوا من عين الله إلا يوم أن قطعوا

حبال الإسلام واستهانوا بروابط القرآن[٢٢]، وعندما سلط الله عليهم من كان يتعلم منهم، ويقتضي آثارهم .. وتلك هي سنة الله في خلقه : "إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها"[٢٣].

وبعد فإن ما يعانيه العالم بصفة عامة، والمسلمون بصفة خاصة من الاختلال والاضطراب والحروب والدمار والاحتلال يجعل من حق الآداب الاجتماعية القرآنية- وعلائق الإنسان العامة كما يصورها القرآن - على الكتاب أن يتناولوها بأقلامهم الجادة، وعلى الناس أن يكثروا من البحوث القيمة حولها وأن تلقى منهم من العناية ما يناسب جلالها وحاجة الناس إليها، لأنها المنفذ الوحيد الذى تنسجم معه حياتهم ما عالجوها على أساس القرآن وهديه وطريقته في تعريف الناس بها. وهدايتهم إليها وحملهم عليها (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[٢٤] ولعلى بهذا التمهيد أكون قد وضعت النقاط على الحروف : إبرازًا للمتناقضات التى عليها المجتمعات المعاصرة والتى تتهدد شجرة حضارتها الإنسانية بالدمار والفناء إن لم يلتفت الناس لسنة الله الماضية فى بناء الأمم وبقاء المجتمعات ويراجعوا مستقبلهم على أساس من الاعتبار بآيات الله فى القرآن الكريم، وهو يذكر مشركى العرب بعبر التاريخ قبلهم ويوجههم إلى السير فى الأرض لرؤية مصارع الغابرين، وهم يقفون مواقفهم وقد كانوا أشد منهم قوة وآثارًا فى الأرض، كانوا ضعافًا أمام بأس وبطش الله، وكانت ذنوبهم تعزلهم عن مصدر القوة الحقيقية فأخذهم الله بذنوبهم قال أمرهم وتنازعوا فيما بينهم[٢٥]. ذلك أمر ينبغى ألا يغيب عن بال المؤمن لحظة، وكذلك كان الصحابة الذين صنعهم الإسلام على عينه لا يغفلون عن هذا الأمر وهم يستلهمونه عطاءه فى كل ما يمر بهم[٢٦]. فطافت حضارتهم وثقافتهم العالمين.

الهوامش والمراجع

١- هوامش الفصل التمهيدى

١- الوعى : Awareness هو إدراك المرء لذاته ولما يحيط بـه إدراكًا مباشرًا وهـو أساس كل معرفة : أحمد زكى بدوى، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧، ص٨١.

٢- سورة .. آية ..

٣- السيد عبد الحافظ عبد ربه، الثورة الاجتماعية فى الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢، ص٤.

٤- الخيال : هو الوسيلة الأولى فى إدراك أية حقيقة وأن الخيال قوة قادرة على الكشف والارتياد عن طريق الخلق والحس والجمال كما أنها قادرة على بلوغ الحقيقة القصوى : محمد ذكى العشماوى، فلسفة الجمال فى الفكر المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص٧٧.

٥- مجلة الأزهر، القاهرة، المجلد العشرون، ص٤٧٨.

٦- سورة فصلت آية ٣٣.

٧- سورة الكهف آية ١ - ٣.

٨- الجدل : هو طريقه فى المناقشة والاستدلال. وقد أخذ معانى متعددة فى المدارس المختلفة عند سقراط: هو مناقشة تقوم على حوار وسؤال وجواب عند أفلاطون: هو منهج فى التحليل المنطقى يقوم على قسمة الأشياء إلى أجناس وأنواع بحيث يصبح علم المبادئ الأولى والحقائق الأزلية. وعند أرسطو ومناطقة المسلمين: قياس مؤلف من مشهورات ومسلمات وعند كانط: منطق ظاهرى فى سفسطة المصادرة على المطلوب وخداع الحواس : مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفى، القاهرة، ١٩٨٣، ص٦٠.

٩- سورة محمد آية ١٢.

١٠- مصطفى خالد وعمر فروخ، التبشير والاستعمار، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤، ط٣، ص١٠.

١١- سورة آل عمران آية ١٨٦.

١٢- السلوك behaviour نشاط الشخص الذى يمكن ملاحظته خارجيًا : معجم اللغة العربية ، معجم المصطلحات الطبية، ج١، القاهرة، ١٩٨٥ ص٧٩ وقد يطلق البعض على السلوك الداخلى الضمنى المستتر كالتفكير أو التخيل أو التصور أو الإدراك أو الانفعال.

١٣- محمد الغزالى، تأملات فى الدين والحياة، ط٣، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٦٢، ص٢١٠.

١٤- محمد فريد وجدى، الإسلام فى عصر العلم، ط٣، دار الكتاب، بيروت، ١٩٦٧، من صفحات متفرقة.

١٥- الحضارة : فى اللغة العربية أحد مصادر الفعل (حضر) بمعنى أننى فيقال حضر الغائب حضورا أى قدم من غيبته ويقال أيضًا حضر فلان حضارة أفأن الحضر وتحضر ويتحضر أى تخلق بأخلاق أهل الحضر وتقليدهم وعاداتهم. ابن منظور، لسان العرب. مادة حضر، ج ٢، ص٩٠٦ دار المعارف، القاهرة.

١٦- أحمد أمين، قيض الخاطر، ج٩، ط١، مكتبة النهضة المصرية، مصر ١٩٥٥.

١٧- عباس العقاد، التفكير فريضة إسلامية، مطابع مؤسسة دار الهلال المصرية، مصر، ص١٥٦.

١٨- سورة الجاثية آية ١٣.

١٩- محمود شلتوت، توجيهات الإسلام، مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، ١٩٥٩م ص١٦٠.

٢٠- سورة الأنعام آية ١١٠.

٢١- محمد الغزالى، معركة الصحف، ط٢، دار الكتب الحديثة بمصر، ١٩٦٢ ص٦٧، ٦٨.

٢٢- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق محمد خان الفقى، ط٢. ١٩٥٩، ص٧، ٨.

٢٣- سورة الإسراء، آية ٧.

٢٤- سورة القتال آية .

٢٥- السيد قطب، فى ظلال القرآن، ج٣٤، مطبعة أولى عيسى الحلبى، ص٦٥،٦٧.

٢٦- شمس الدين ابن قيم الجوزية، الجواب الكافى، تعليق محمود عبد الوهاب فايد، مطبعة صبيح، الأزهر، ١٩٥٨م، ص٣٥.

الفصل الثانى

فلسفة السلام فى الإسلام

-أهمية البحث وفروضه (تساؤلاته)
-السلام لغة واصطلاحًا
-فلسفة السلام والعدل فى الإسلام
-السلام والأمن العام
-السلام ووحدة الكون من المنظور الإسلامى
-الإنسانية أسرة كبيرة فى نظر الإسلام
-الفروق المكانية من وجهة النظر الإسلامية
-الأنبياء أخوة وأمة واحدة
-هدف واحد وألوان متعددة
-موقف الإسلام من العلاقات الدولية
-فلسفة الإسلام فى مشروعية العلاقات الدولية
-سماحة الإسلام مع مخالفيه
-شهادة الأجانب بتسامح الإسلام
-الإسلام يدعو الناس إلى السلم
-اتجاه الإسلام نحو المثالية
-فلسفة العلاقات الإنسانية فى الإسلام
-العلاقة بين المسلمين وغيرهم
-كفالة الحرية الدينية لغير المسلمين
-المولادة المنهى عنها
-الاعتراف بحق الفرد
-جريمة إهدار الحقوق
-أهم النتائج التى أسفرت عنها الدراسة
-الإسلام دين السلام
-الهوامش والمراجع

أهمية البحث وفروضه (تساؤلاته)

مما لاشك فيه أن السلام من أعظم الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها كل إنسان وأن تكون سمة من سمات الشعوب والدول وأن نستبعد فكرة الحرب والتعرض لويلاتها وما تسببه من دمار وخراب وقتل للأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ، فضلا عن تحطيم المباني والعمران وتأخر الحضارة والمدنية من أجل ذلك انبثقت فكرة هذا البحث بغية تجنب ما تسفر عنه الحروب كما تستهدف هذه الدراسة من بين ما تستهدفه بيان فضل السبق لإسلامنا الحنيف من وضع قواعد وقوانين ومبادئ وأسس تؤدي إلى إقرار السلام العالمي والإخاء والتعاون بين البشر وتضع القوانين التي تحكم العلاقات الدولية بل والعلاقات بين الأفراد والجماعات حكما يقوم على العدل والمساواة وتبغض الظلم والعدوان والبطش بل وتعمل على صيانة حقوق الإنسان كما وضحها القرآن الكريم.

ويطرح هذا البحث عددا من التساؤلات الهامة حول طبيعة السلام في الإسلام وما هي أهدافها وما الفكر الفلسفي أو العقائدي الذي يكمن وراء فكرة السلام في إطار الفكر الإسلامي والسياج الأخلاقي أو الروحي الذي يعكسه التراث الإسلامي؟ مستهدفًا إبراز الجوانب الفلسفية أو الفكرية التي تحيط بفكرة السلم في الإسلام ومعروف أن الإسلام قد صبغ كل ما نقله المسلمون من تراث علمي أو فلسفي أو معرفي، قد صبغه بالصبغة الإسلامية وتأثرت جهود مفكري الإسلام وفلاسفته وكافة جوانب الفكر بعلوم القرآن الكريم ومبادئ الإسلام الحنيف بالطابع الإسلامي الأخلاقي ومن هذه الأسئلة ما يلي:

*ما هي المبادئ التي وضعها الإسلام لإقرار الأمن العام؟

*ما هي فلسفة الإسلام وما هي نظرته لمفردات هذا الكون؟

*هل هناك فروق في نظر الإسلام بين طبقة وأخرى أو مكان وآخر أم أنه ساوى بين جميع الناس في كل زمان ومكان وما هي الأسس التي بنيت عليها المفاضلة.

*كيف نقل الإسلام المسلمين من العصبية والتفاخر بالنسب إلى الإخاء والمساواة والعيش في سلام بل والدعوة إليه.

*ما هو أثر العقيدة الإسلامية (التوحيد) في بسط السلام؟.

*هل هناك علاقة بين الأنبياء والرسل أم أن رسالتهم واحدة تهدف إلى تحقيق هدف واحد؟

*ما هي العلاقة بين العدل والسلام في الإسلام؟

*ما موقف الإسلام من العلاقات الدولية؟ وهل وضع الإسلام قواعد وأسس تبنى عليها العلاقات الدولية؟ وما مدى صلاحيتها للتطبيق في عصرنا الحالي؟

مما لا شك فيه أن مشكلة السلام العالمي التي تواجهها البشرية جميعًا والنظام العالمي الجديد، والذي تتشدق به الدول الكبرى في عصرنا الحالي، وبما تحتويه من مفاهيم، كان للدين الإسلامي الحنيف فضل السبق في تقريره والدعوة إليه والحث عليه بفلسفة صادقة ومنهج قويم لا يعرف المراوغة أو المغالطة أو المماطلة. كما أن الحالة الراهنة مليئة بالصراعات والتنافس بين المجتمعات البشرية والدول والشعوب. ولهذا الصراع انعكاساته الخطيرة على نفسية الإنسان وعلى سلوكه، إذ أفقده السكينة والاطمئنان وغرست في نفسه الخوف والفزع والفشل في الحياة، فضلاً عن القلق والاضطراب من الوضع السيئ الذي اهتزت فيه القيم الإنسانية النبيلة.

إن التطور والتقدم العلمي والسيطرة التكنولوجية، والتفوق المادي والصناعي لا تكفي وحدها لضمان سعادة البشرية ولو كان ذلك صحيحًا لما حدث ما نراه ونسمعه في أكبر دول الغرب من جرائم ومآسي وفواجع ومنها ارتفاع نسبة حالات الانتحار.

كما أن تفوق الغرب على الشرق في عصرنا الحالي، كان تفوقًا مدنيًا وماديًا لا حضاريًا فهو تفوق في التقنية العسكرية المستعملة في الحروب بالذات، في حين أن فلسفة الإسلام وحضارته كانت وما تزال معرفة وإصلاحًا وعلمًا ومنهج حياة آمنة ومستقرة، ولم تكن الفتوحات الإسلامية في يوم من الأيام استعبادًا أو استعمارًا للبشر، وإنما كانت نشرة للدعوة الإسلامية وتخليص الناس من العبودية لغير الله تعالى فإن أصدق الأحاديث ما عبر عن الواقع العملي في الحياة وأنفع الموضوعات ما تناول مشكلة حالة البشرية.

والحديث عن فلسفة السلام في الإسلام معبر عن واقع عملي وحقيقة قائمة. ومن هنا فإن البحث الحالي يستمد أهميته من أهمية موضوعه فهو تناول مشكلة البشرية جميعًا وهو حديث الساعة في عصرنا الحالي. وإن في الحديث عن فلسفة الإسلام في ظل تعاليمه السمحة لهو كشفًا لأهم جانب من جوانب الحضارة الإسلامية والإنسانية التي يتحقق فيها سعادة البشر.

ويقصد الباحث بفلسفة السلام في الإسلام مجموعة القواعد والمبادئ والنظم التي نادى بها الإسلام والأسس التي قامت عليها علاقة الدول الإسلامية بغيرها من الدول الأخرى وهو موضوع ليس بمستحدث، فهو قديم قدم الإنسان إذ ما من شخص أو شعب أو أمة إلا ولها علاقات بغيرها، غير أن ما يحكم هذه العلاقات لم يكن منضبطًا، فقد كان يطبق في بعض الأقاليم دون البعض الآخر.

ولما زادت التجمعات البشرية وتعددت الدويلات اضطر بعضها إلى محالفة بعض للاستفادة المتبادلة وقد حدث ذلك قبل الإسلام بقرون عديدة. غير أن هذه القواعد التي كانت تحكم العلاقات بين هذه الدول لم تكن تطبق على كل رعايا الدولة، فقد أشار الدكتور محمد حميد الله الحيدر أبادي في تقديمه لكتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزيه إلى أن حضارة الإغريق حين بلغت الذروة الشامخة من السمو والارتقاء ما كانت نظمها في الحقوق الدولية تطبق إلا على رعاياها اليونان رغم أنه كان في البلاد سكان غير اليونان يشتركون معهم في الدين واللسان والتقاليد والعادات ومع هذا لم تسر عليهم قواعد الحقوق الدولية.

واليهود كذلك لم تكن قواعد العلاقات الدولية تطبق إلا على أبناء ملتهم، وما عداهم من البشر خدم على حد زعمهم فلا يستحقون ما يستحقه اليهود وفي الهند كان الناس أربع طبقات.

١- البراهمة : وهم أهل الدين.

٢- الكشترية : وهم أهل السيف.

٣- الوبشة : وهم أهل الحرف والتجارة.

٤- الشودرة : وهم الخدم.

وكان البراهمة يعتقدون أن ما سواهم لا يرقى إلى طبقتهم، بل هو في نظرهم من طبقة الأنجاس. وعلى ذلك فلا عجب إذا لم يعرف البراهمة لأحد من الأجانب حقًا في السلم أو في الحرب.

وأما الرومان : فكانوا يقولون ما في الأرض إلا أقوام ثلاثة:

١- الرومان

٢- المعاهدون

٣- سائر العالمين

وكانت لهم في معاملة المعاهدين قواعد وأصول، أما الأجنبي فيبيحون قتله ونهبه وسلبه، فهو مال مباح، يصح لأي وطني أن يستولي عليه وكانت مجامعهم الدينية وباباواتهم يفتون : إن الغدر إثم ولكن الوفاء مع المسلمين أكبر إثمًا [1]. وهكذا تشابهت أقوالهم وأقوال اليهود من قبلهم "ليس علينا في الأمين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون" آل عمران ٧٥. وحين جاء الإسلام امتدادًا للهداية البشرية. لم يستثن المسلمون أحدًا من غير المسلمين أو دولة من تطبيق فلسفة الإسلام وقواعده وأحكامه الإسلامية التي تربط علاقات الناس بعضهم ببعض ولم تحرم أحدًا من تلك الحقوق التي يتمتع بها المسلم إلا ما اتفق عليه برضاء الطرفين كمسائل الأحوال الشخصية والاعتقادات الدينية. هذا وسوف يرى القارئ

الكريم كيف كان الإسلام أول من وضع الأسس والخطوات السليمة التي ترمي إلى إقرار عملية السلام والتي لو اتبعها البشر لأراحوا واستراحوا ومن ذلك :

١- تقرير معنى الإخاء بين الناس والقضاء على روح التعصب.

٢- الإشادة بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح الكريم.

٣- حصر فكرة الحروب واللجوء إلى المحادثات السلمية إذا اشتد الأمر هوانًا.

٤- التأمين المسلح وسبق الإسلام كل الخطوات العصرية في ذلك.

إن هذه الفلسفة - فلسفة الإسلام في إقرار السلام - أفضل بكثير من المناهج الوضعية التي ما تمخضت عنها إلا الحروب المدمرة، فلقد شهد القرن الماضي حربين عالميتين أطاحت بآلاف الموتى وآلاف الجرحى. وبالأخضر واليابس وجعلت الإنسان يتعامل مع أخيه الإنسان بطريقة هي أفزع من طريقة الحيوانات، وسبب كل ذلك هو محاولة فرض الدول العظمى مثل الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها سيطرتها على العالم بالقوة والتدخل في شؤون الدول دون سبب أو داع لذلك، فقد أصبحنا في عصر يأكل فيه القوي الضعيف بل لم ينظر إليه بعين الاحترام، وإذا قامت دولة أو أخرى بالاحتجاج أو الاعتراض على ذلك تقوم الدول العظمى بتخريبها وتدميرها بحجة أنها تحمي العالم من الإرهاب. أي قانون هذا الذي يعطي لدولة عظمى التدخل في شؤون دولة أخرى في سياستها الخارجية والداخلية.

وأفظع من ذلك أن الدول العظمى ومنها أمريكا تساند الظلم والدمار بشتى صوره، مما يمهد الطريق لحرب عالمية ثالثة إذا استمر الحال على نفس المنوال والحرب العالمية الثالثة تعني الدمار الشامل لكوكب الأرض لأن الحرب العالمية الثالثة لابد أنها ستقوم باستعمال أسلحة الدمار الشامل. وما أرى إلا أن أفضل طريق لتجنب ويلات الحروب والدمار والحفاظ على الإنسانية من اللجوء إلى كتاب الله تعالى وما فيه من تعاليم دينية سمحة تحث على الحب والتعاون والإخاء والسلام وسنة النبي محمد ﷺ فقد قال ﷺ (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي) رواه الحاكم عن أبي هريرة.

وتنقلنا هذه النقطة إلى تعريف السلام لغة واصطلاحًا ثم إلى محاولة الإجابة على الأسئلة سالفة الذكر.

السلام لغة واصطلاحًا :

السلام اسم من التسليم كالكلام من التكليم أي التحية وفي التنزيل (والسلام على من اتبع الهدى) طه ٤٧ أي من اتبع هدى الله تعالى سلم من عذابه وسخطه والسلام اسم من أسماء الله الحسنى لسلامته تعالى من النقص والعيب والفناء، ويقصد بدار السلام الجنة، والإسلام بمعنى الانقياد لأمر الآمر ونهيه بلا

اعتراض ويقصد به الدين الإسلامي المشهور وقد يستعمل بمعنى المسلمين أي أهل الإسلام[٢].

والسلام مصدر الفعل سلم ويستعمل اسما بمعنى الأمان والعافية والتسليم والتحية[٣].

واصطلاحًا يقصد بالسلام Peace السلم من الناحية السياسية التي تقوم بين الدول من حيث عدم اشتراكها في أي حرب وإنهاء الحرب بينها، والسلم الحقيقي ليس مجرد عدم وجود خصومات قائمة بل ينطوي على استقرار النظام وهناك فرق بين التعايش السلمي الذي يتضمن في معظم الحالات دلالة وجود عداء دفين وبين التعاون السلمي الذي يتضمن مجهودات فعالة لتحقيق أهداف مشتركة وتسوية الخلافات على أساس من العدالة، ويقصد بالسلام من الناحية النفسية حالة الهدوء والتحرر من أي اضطراب أو فزع[٤].

وتعني كلمة السلام الحياة المطمئنة السوية والسلوك السوي والوطن الثابت لإقامة الحضارة الإنسانية على أساس من المودة والتسامح هذا وقد وردت كلمة السلام في القرآن الكريم في كثير من الآيات وفي معاني مختلفة منها ما يلي:

١- إن السلام اسم من أسماء الله الحسنى خص به نفسه (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون) الحشر (٢٣) وحين يسمي الله عز وجل نفسه بالسلام فالأهمية وما تشير إليه من المعاني والصفات.

٢- إن السلام وهو تحية أهل الجنة قال تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) يونس (١٠).

٣- إن السلام تحية الملائكة في الجنة للداخلين إليها قال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) الزمر (٧٣).

٤- إن السلام ركن من أركان الطمأنينة في الأرض ورد في حق مصر قال تعالى: (فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) يوسف (٩٩).

٥- إن السلام رسالة إلى الناس حملتها الملائكة للرسل وبلغتها إياهم قال تعالى (ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام) هود ٦٩ وقال جل شأنه (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) الحجر ٥٢.

٦- إن السلام خلود في الجنة يوم القيامة وترداد لأهل الجنة خالدين فيها (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيل سلاما سلاما) الواقعة ٢٥ - ٢٦.

٧- إن السلام كرم من الله تعالى ينزله على عبادة المؤمنين فيتمتعون بفضله ولا يرجون سواه قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام (يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم) الأنبياء ٦٩، والتحية أجمل ما يؤديه الإنسان في حياته للآخرين وحين يدخل الجنة يوم الدين.

٨- وإن السلام دار للمؤمنين وموئل للصالحين قال تعالى (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) الرعد (٢٤).

*ومن فلسفة الإسلام أنه يدعو إلى السلام في الدنيا والآخرة قال تعالى (والله يدعو إلى دار السلام) يونس (٢٥).

٩- إن السلام شامل لحياة المرء يعيش في رحابه المرء منذ ولادته وحتى لقاء ربه قال تعالى (والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) مريم (٣٣).

١٠- إن السلام ميدان رحب يطمئن الإنسان فيه وينعم بالاستقرار والأمن والأمان قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) البقرة ٢٠٨ قال القرطبي (لما بين الله سبحانه الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق فقال : كونوا على ملة واحدة؛ واجتمعوا على الإسلام واثبتوا عليه. فالسلم هنا بمعنى الإسلام؛ ومنه قول الشاعر الكندي:

* دعوت عشيرتي للسلم لما ... رأيتهم تولوا مدبرينا

أي إلى الإسلام لما ارتدت كندة بعد وفاة النبي ﷺ مع الأشعث بن قيس الكندي، وقرئ "السلم" بكسر السين. قال الكسائي : السلم والسلم بمعنى واحد، وكذا هو عند أكثر البصريين، وهما جميعا يقعان للإسلام والمسالمة. وفرق أبو عمرو بن العلاء بينهما، فقرأها هنا : "ادخلوا في السلم" وقال هو الإسلام. وقرأ التي في "الأنفال" والتي في سورة "محمد"ﷺ "السلم" بفتح السين، وقال : هي بالفتح المسالمة. وقال عاصم الجحدري: السلم الإسلام، والسلم الصلح،. قال الجوهري : والسلم الصلح، يفتح ويكسر، ويذكر ويؤنث؛ وأصله من الاستسلام والانقياد؛ ولذلك قيل للصلح: سلم. قال زهير :

وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم

٥- وهكذا فإن الإسلام قول يترجم عن مكنون القلب ويؤدي إلى الهدوء قال تعالى (سلام قولا من رب رحيم) يس ٥٨ وقال تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) إبراهيم ٢٣ إن الإسلام سبيل الأنبياء والمرسلين قال تعالى (سلام على نوح في العالمين) الصافات ٧٩ وقال (سلام على موسى وهارون) الصافات ١٢٠ وقال (سلام على إبراهيم) الصافات ١٠٩ وقال (سلام على آل ياسين) الصافات ١٣٠

ثم عمم تبارك وتعالى فقال (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) الصافات ١٨١ - ١٨٢.

إن هذه المعاني للسلام ليست إلا صفات لما تتمتع به هذه الكلمة من سمو الأهداف والمفاهيم ولذلك فليس كلاما يقال على اللسان فحسب وإنما هو عمل يترجمه الإنسان إلى واقع يعيش فيه ويستقر عليه وليس صحيحا أن يقال أن السلام دعوة صالحة إلى الحياة الكريمة دون أن يكون لهذه الدعوة وجود على أرض الواقع، فالسلام الذي يحمله المسلمون ويغارون عليه ويهدفون إليه ليس هو السلام الذي يدعو إليه أعدائهم ويرغبون في قلبه إلى استسلام، فالسلام الحقيقي الذي يدعو إليه الإسلام ينافي الاستغلال والاستعمار فهو إنما وضع للناس من أجل مصالحهم العامة وليس من أجل المنافع الخاصة بمعنى أن السلام لا يمكن أن يكون قنطرة إلى حب الذات وإنكار الغيرية وإنما هو فلسفة سوية وسلوك يؤدي إلى التعاون البناء في سبيل المستقبل الأفضل.

وفي الوقت ذاته فالحرب التي تقام أحيانا لغرض السلام إذا ما كان هناك عدوان فإنما هي الإصلاح الذي طلبه الإسلام حتى لا يتعدى الإنسان حدوده فيقتل ويضرب بحجة السلام قال تعالى (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) الحجرات (٩) قال ابن كثير (يقول تعالى آمرا بالإصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما") فسماهم مؤمنين مع الاقتتال بهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن عن أبي بكر رضي الله عنه قال إن رسول الله ﷺ خطب يوما ومعه على المنبر الحسن بن علي رضي الله عنهما فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول "إن ابني هذا سيد ولعل الله تعالى أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين" فكان كما قال ﷺ أصلح الله تعالى به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة وقوله تعالى "فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله "أي حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه كما ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال "انصر أخاك ظالما أو مظلوما "قلت يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما؟ قال ﷺ : "تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه" وقال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر قال سمعت أبي يحدث أن أنسا رضي الله عنه قال :

قيل للنبيﷺ لو أتيت عبد الله بن أبي فانطلق إليه النبيﷺ وركب حمارا وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة فلما انطلق النبيﷺ إليه قال : إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك فقال رجل من الأنصار والله لحمار رسول اللهﷺ أطيب ريحا منك قال فغضب لعبد الله رجال من قومه فغضب لكل واحد منهما أصحابه قال فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنه أنزلت فيهم "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما" ورواه البخاري في الصلح عن مسدود ومسلم في المغازي عن محمد بن عبد الأعلى كلاهما عن المعتمر بن سليمان عن أبيه به نحوه وذكر سعيد بن جبير أن الأوس والخزرج كان بينهما قتال بالسعف والنعال فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر بالصلح بينهما وقال السدي كان رجلا من الأنصار يقال له عمران كانت له امرأة تدعى أم زيد وإن المرأة أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية له لا يدخل عليها أحد من أهلها وإن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها وأنزلوها لينطلقوا بها وإن الرجل كان قد خرج فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها فتدافعوا واجتلدوا بالنعال فنزلت فيهم هذه الآية فبعث إليهم رسول اللهﷺ وأصلح بينهم وفاءوا إلى أمر الله تعالى وقوله عز وجل "فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين" أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط وهو العدل "إن الله يحب المقسطين" وقال النبيﷺ "المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور على يمين العرش الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا" رواه مسلم والنسائي[٦] من حديث سفيان بن عيينة به).

فلسفة السلام والعدل في الإسلام

السلام والعدل صنوان واحد لا يفترقان فهما القاعدتان الأساسيتان للمجتمع الصالح فقد ظلت وستظل دعوة السلام في الإسلام قائمة على العدل لأنها دعوة شمولية تنظم جميع مناحي الحياة الإنسانية فقد حث الإسلام على العدل ونهى عن العدوان والبغي قال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) النحل ٩٠ وقال (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) النساء ٥٨ قال القرطبي (هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع. وقد اختلف من المخاطب بها؛ فقال علي بن أبي طالب وزيد بن أسلم وشهر بن حوشب وابن زيد: هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة، فهي للنبيﷺ وأمرائه، والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما من لديهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات

والعدل في الحكومات. وهذا اختيار الطبري. وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه: والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى. والأمانة في الصلاة وفي الصوم وفي الحديث وأشد ذلك الودائع). ذكره أبو نعيم الحافظ في الحلية)[٧]، وبما أن العدل قوام الملك والحياة ولا سلام بدونه فالحق ما يدعوا إليه العرب والمسلمون في طلبهم للسلام أن يكون قائمًا على العدل لأن في ذلك حياة مستقرة لشعوب المنطقة وأمنا لها وقد خرجت بعض الدول الطامعة عن الإجماع الدولي بضربها العدل عرض الحائط وتمسكها باحتلالها أراضي الآخرين وما تفعله إسرائيل هو خط السير نفسه الذي يطبق في مناطق كثيرة للمسلمين في العالم ومنها العراق حاليا وتستند قواعد العدل على المساواة وتكافؤ الفرص ومحبة الآخرين، والإنسان حين يبغي تحقيق العدالة في مجتمعه الإنساني إنما يبغي تحقيق الغاية التي خلقه الله من أجلها وهي العبادة قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) الذاريات ٥٦ - ٥٨.

ومما سبق يتضح أن مفهوم العدل في الإسلام يحقق السلام للبشرية جمعاء[٨].

السلام والأمن العام

لاشك في أن السلام من أهم الدعائم التي يعتمد عليها الأمن ولا يمكن أن تقوم للأمن قائمة في بقعة من بقاع الأرض إلا إذا سادتها روح السلام ولن يكتب لشعوب الأرض قاطبة ذرة من الاستقرار إلا إذا كانت نفوسها على أكبر قسط من المسالمة ولا ريب أيضًا في أنه ليس هناك دين دعا إلى السلام كما دعا إليه الإسلام ولا مذهب من المذاهب الحديثة أو القديمة أو أي فلسفة من الفلسفات الوضعية أسهمت في تدعيم أسس الاستقرار كما أسهم الإسلام فالسلام في الأرض هو هدف دعوته وأنشودة رسالته ولم تكن حروبه في الواقع إلا وسيلة لإقرار هذا السلام في الأرض فهذه الحروب لم تعلن إلا دفاعًا عن النفس أو ردا للعدوان أو ردعا لزعماء البغي أو إخماد الفتنة أن الإسلام رفع راية السلام منذ اللحظة الأولى ولم يعلن حربا إلا إذا كان قد دفع إليها دفعا ولقد ظل رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة بين ربوع مكة محاولا نشر دعوته في ظل السلام والقرآن الكريم دستور الإسلام الخالد عني كل العناية بقضية السلام فهو يعرض علينا أكثر من القضايا التي تجلت فيها فلسفته في السلام وكيف قوبل البغي والعدوان بالمثابرة والمسالمة ليؤكد لنا ضرورة إيثار السلام في كل أمر لتسعد البشرية قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) البقرة ٢٠٨ وقال أيضًا (وإن جنحوا للسلم

فاجنح لها وتوكل على الله) الأنفال ٦١ هكذا حرص الإسلام على السلام عن طريق حث اتباعه عليه وغرسه في شعور ووجدان المسلم ومنعهم أن يزجوا بأنفسهم في الأوساط التي تؤثر الشغب.

فالسلام مبدأ من المبادئ التي عمق الإسلام جذورها في نفوس المسلمين فأصبحت جزء من كيانهم وعقيدة من عقائدهم وفلسفة ومنهجا وأسلوبا لهم في الحياة. لقد صاح الإسلام منذ طلع فجره وأشرق نوره صيحته المدوية في آفاق الدنيا يدعو إلى السلام ويضع الخطط الرشيدة التي تبلغ بالإنسانية إليه لأن الإسلام يحب الحياة ويقدسها ويحبب الناس فيها وهو لذلك يحررهم من الخوف ويرسم الطريقة المثلى لتعيش الإنسانية متجهة إلى غايتها من الرقي والتقدم والتطور والازدهار وهي مظللة بظلال الأمن الوارفة.

وأولى الناس وأقربهم إليه من بدأ بالسلام وبذل السلام للعالم وإفشاؤه جزء من الإيمان وقد جعل الله تعالى تحية المسلمين بهذا اللفظ للإشعار بأن دينهم دين السلام والأمن والأمان وهم أهل السلم ومحبي السلام (٩) وفي الحديث (إن الله تعالى حعل السلام تحية لأمتنا وأمانا لأهل ذمتنا) رواه الطبراني عن أبي أمامة. ولا ينبغي للإنسان أن يتعامل مع إنسان قبل أن يبدأ بكلمة السلام وسبب ذلك أن السلام أمان ولا كلام إلا بعد الأمان، والمسلم مكلف وهو يناجي ربه بأن يسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى عباد الله الصالحين فإذا فرغ من مناجاة الله تعالى وأقبل على الدنيا أقبل عليها من جانب السلام والرحمة والبركة، وفي ميدان الحرب والقتال إذا نطق المقاتل كلمة السلام على لسانه وجب الكف عن قتاله قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا) النساء (٩٤) قال ابن كثير (قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبيﷺ يرعى غنما له فسلم عليهم فقالوا لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه وأتوه بغنمه النبيﷺ فنزلت هذه الآية[١٠].

وكثرة تكرار لفظ السلام على هذا النحو مع إحاطته بالجو الديني والنفسي من شأنه أن يوقظ الحواس جميعها ويوجه الأفكار والأنظار إلى هذا المبدأ السامي العظيم ويجعل السلام فلسفة للإسلام[١١].

السلام ووحدة الكون من المنظور الإسلامي

السلام في الإسلام فكرة أصيلة وعميقة وهي فكرة تتصل اتصالا وثيقا بمفهوم الإسلام عن الكون والحياة والإنسان.

فالإسلام دين وحد بين مفردات هذا الكون وجزئياته من الجماد الساكن إلى النبات النامي إلى الحيوان النامي والمتحرك إلى الإنسان النامي والمتحرك والعاقل الناطق فعن طريق إرادة الله الواحد الأحد صدر هذا الكون قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون) يس ٨٢ - ٨٣ فلا وساطة بين هذه الإرادة الموجدة وهذا الكون المخلوق ولا تعدد في الطريقة التي صدر بها هذا الكون (كن فيكون) لقد انقطعت كل أسباب الفرقة والخلاف في مصدر هذا الكون الأول قال تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) المؤمنون ٩١.

إن هذا الكون المتفرق الأجزاء والمتعدد الأشكال والمتنوع الأحجام يرجع في حقيقته إلى أصل واحد ومن هنا يمكن تعليل اتحاد جميع هذه المخلوقات في خصائص مشتركة تبين مدى القرب الذي بينها فهي جميعها تشترك في خاصية واحدة هي التزاوج قال تعالى (ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) الذاريات ٤٩، وأنها تشترك في تنظيم جماعي واحد قال تعالى (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) الأنعام ٣٨، كما أنها جميعا تعتمد في حياتها على عنصر واحد هو الماء قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون) الأنبياء ٣٠.

ومما تقدم يتضح لنا كيف يقوم النسب بين الأحياء في الأرض جميعا بل بين المخلوقات كلها حتى كأنها أسرة واحدة.ثم نأتي إلى هذا الإنسان وهو أرقى هذه المخلوقات نراه قد خلق من مادة هذا الكون الأول قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) المؤمنون ١٢. وأفراد هذا الإنسان متساوون في نسبتهم إلى هذه المادة قالﷺ أنتم بني آدم وآدم من تراب (رواه مسلم) وكل أفراد هذا الجنس خلقوا من نفس واحدة، قال تعالى "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء" (النساء آية ١). وكلهم خلقوا من أجل التعاون والتآلف وتكوين الحضارات وإقامة العمران الذي يتطلب التآذر والأخذ والعطاء والمودة والرحمة بين بني البشر قال تعالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات ١٣). إن الإسلام بتقريره هنا وحدة الإنسانية في أصلها ونشأتها وبتقريره الغاية من تفرق الأجناس والقبائل ونصه على أنها للتعارف والتعاون والتآلف قد أزال كل أسباب النزاع والخصومة فمن هذا التناغم والتناسق بين أصل الإنسان ووحدة البشرية وطبيعة الكون وناموس الحياة تستمد طبيعة السلام في الإسلام

وتصبح فلسفة قائمة على السلام، فالسلام هو القاعدة الدائمة. وتحقيقًا لفكرة السلام على أتم وجوه وقطعًا لكل سبب من أسباب التنازع والحروب فقد أرسل الله تعالى إلى هذه البشرية كلها رسالة واحدة في أصلها وجذورها والمؤمنون بها أمة واحدة، قال تعالى "قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" البقرة ١٣٦. فالدين كله من عند الله وهو دين واحد يدعو إلى الإسلام لله الواحد الأحد[١٢].

الإنسانية أسرة كبيرة في نظر الإسلام

في القرآن الكريم نداءات من الله يوجهها إلى الإنسان كإنسان توضح له السبيل إلى حل قضاياه الكبرى ومن أهم هذه القضايا نظرة الإنسان إلى جميع إخوانه في الإنسانية وتأسيسًا على عقيدة التوحيد في الإسلام وهي جوهر الدين ينبغي أن تكون هناك وحدة في الإنسانية. هذا ما قال به الإسلام وما انتهى إليه البحث العلمي وما ذهب إليه بيان هيئة اليونسكو من قضية العنصرية. وكان للدين الإسلامي فضل السبق حيث قال تعالى "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبًا (النساء آية (١)) فالخالق واحد والنفس الإنسانية واحدة ومن هذه النفس خلق الله زوجها ومن هذه الأسرة الأولى جاء الناس رجالاً كثيرًا ونساء ثم يأمرنا الله بعد هذا أن نتقي أمرين : الله والأرحام، والأرحام هنا للدلالة على الصلة الإنسانية التي تربط الناس جميعًا بعضهم ببعض مهما تناءت الديار وتعاقبت العصور واختلفت الألسنة والألوان وتباين الوضع الاقتصادي والاجتماعي. نحن مأمورون بأن نتقي الله في أوامره. والتطبيق الأولي لتقوى الله هو رعاية الإخاء الإنساني الكبير.

الألسنة والألوان ودلالتها

ونحن كمجتمع إنساني كبير لم نشاهد بدأ الخلق ولم نرى النفس الإنسانية وإنما رأينا ألسنة مختلفة وألوانًا متعددة، فما موقف الإسلام من هذا الاختلاف؟ إن نظرة الإسلام إليه لا تعدو أن تكون كنظرته إلى كل ما في الأنفس والآفاق من مجالات التباين فكما أن هناك تباين في مكونات البيئة الطبيعية فإن هناك اختلاف في الألسنة والألوان وسط هذا الحشد من الظواهر الطبيعية وكلها نعتبرها أدلة على وجود الله سبحانه وتعالى ووضعها بهذه الصورة المندمجة ضمن مكونات البيئة الطبيعية لهو أعمق في الدلالة على أنها مجرد ظاهرة كغيرها من الظواهر تجمعها

كلها نظرة واحدة من التأمل الذي يعمق الإيمان في النفس الإنسانية ويدعوها إلى العمل القائم على الحب والرحمة. وفي هذا يقول الله تعالى "ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين" (الروم ٢٢). وحديث القرآن الكريم عن اختلاف الألسنة والألوان بين الناس يماثل حديثه عن الألوان في آفاق البيئة الطبيعية قال تعالى "ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلف ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور" (فاطر ٢٧، ٢٨). هنا نلمس ربطًا بين هذه الظاهرات وضرورة البحث العلمي فيها واطمئنانًا من القرآن الكريم على أن ما يكشف عنه البحث العلمي الموضوعي في هذا المجال لن يكون متعارضًا مع الأساس الذي تقوم الحياة عليه وهو أن يكون الناس جميعًا أخوة فهم أبناء أب واحد وأن يعملوا في الحياة دون أن يكون لفروق اللون بشرية كانت أو طبيعية من الأثر ما يعوق هذا التعاون الإنساني من أجل حياة أفضل يسودها الأمن والسلام والاستقرار والمحبة والرحمة والتعاون والتكاتف والتآزر والأخذ والعطاء والبر والإحسان.

الفروق المكانية من وجهة النظر الإسلامية

وانطلاقًا من هذا الأساس وأعني به وحدة الإنسان يعالج القرآن الكريم الفروق المكانية بين الناس أنهم يعيشون شعوبًا وقبائل ولكل شعب أو قبيلة موطن وعليهم جميعًا أن يتعارفوا على أساس من تقوى الله قال تعالى "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" (الحجرات ١٣).

فالإسلام ينظر إلى الإنسانية كأنها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون للون فضل على آخر وإلى هذا ذهب الرسولﷺ حيث قال "أنا سابق العرب وصهيب سابق الروم وسليمان سابق الفرس وبلال سابق الحبش" (رواه الحاكم عن أنس) فهؤلاء هم السابقون من شعوبهم على الإسلام ضمهم الرسولﷺ مع نفسه في باقة مؤمنة ولكن لم يكن من اليسير على النفس وقتئذ أن تقبل هذا الإخاء الكبير الذي جاء به الإسلام بعد أن مزقتها العصبيات الأقلية واللونية والطبقية وتراكمت فيه رواسب تاريخية أصبحت جزءاً أساسيًا من التكوين العقلي للمجتمع وكان على الإسلام أن يضع فلسفة لتصحيح المفاهيم في عالم الفكر وينقل هذه المفاهيم من النفس إلى الحياة ليحدد أبعاد المجتمع الجديد على أساس من الإيمان والأخوة الإنسانية والعمل الصالح.[١٣]

الأنبياء أخوة وأمة واحدة

وتأكيدًا لمعنى الإخاء الإنساني عبر التاريخ، نرى القرآن الكريم يأمر المسلم بأن يؤمن بجميع الأنبياء السابقين دون تفرقة بينهم فيقول الله تعالى "ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير" البقرة ٢٨٥.

والقرآن الكريم لا ينص على أن الله قد ذكر كل الرسل في القرآن، وإنما هو يقول عن الأنبياء "منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك" غافر ٧٨.

والإنسان في نظرته إلى الدين إنما يلتمس فيه فلسفة السلم التي تقوم عليها الحياة الإنسانية، دون أن يظن أنه أحاط حتى بأسماء الأنبياء فضلا عن تفاصيل قصصهم فهو حين يرى أمامه عملا صالحا فعليه أن يقدره ويحترمه، وإن لم يرد به نص صريح في كتابه الذي أنزله الله عليه.

ويأمرنا الله أن يكون هذا قولنا دائمًا، ويؤكد هذا المعنى في أكثر من آية في القرآن. قال تعالى :

قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون"البقرة ١٣٦.

وفي القرآن سور كثيرة تمجد الأنبياء السابقين وتذكر ما لهم من فضل وجهادهم في سبيل الحق بل إن نحو ثلاثة أرباع القرآن يتكون من عرض لقصص الأنبياء من زوايا مختلفة أهمها ثلاث : تثبيت المؤمنين على طريق الحق، وبيان شدة الصراع الذي لقيه الأنبياء من أقوامهم، والجزاء الذي يحل بالظالمين ..

ويدعونا القرآن إلى أن نقتدي بهذه النماذج الإنسانية على تباعد الأزمنة بينها والأمكنة ويعتبرهم جميعًا أمة واحدة فيقول "إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون" الأنبياء ٩٢ ويعقب على هذا بقوله مبينا طبيعة الصراع ومؤكدا وجوب العمل لإقرار قيم الحق والعدل في الحياة فيقول "وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون" الأنبياء ٩٣ - ٩٤.

وبرغم ما حدث بين أتباع الأديان من صراع عبر التاريخ، فإن مكانة الأنبياء جميعا ظلت لها قداستها في أرض الإسلام فظل الشعاع النوراني الذي يربط بين الإنسانية يضئ القلوب، ويدعوها دائمًا إلى الإخاء الإنساني الذي كافح من أجله الأنبياء والفلاسفة والمصلحون. واستكمالاً للصورة التي رسمها القرآن الكريم عن

الأخوة يصور النبيﷺ الجهد المشترك بين الأنبياء جميعًا، وأنهم يعملون من أجل هدف واحد في مثال حسي فيقول "إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة في زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين "رواه البخاري ومسلم".

وحديثه عن الأنبياء يحمل دائما هذا الروح من الإخاء والزمالة التي دعا إلى تأكيدها في جوانب الحياة.

فهو يقول عن يوسف "أتدرون من الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم؟ إنه يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" رواه أحمد.

ويقول عن يونس "دعوة ذي النون إذ دعاه في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شئ قط إلا استجاب الله له". رواه الترمذي

ويقول عن موسى "رحم الله موسى أو ذي بأكثر من هذا فصبر" رواه البخاري.

ويقول عن عيسى: (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، والأنبياء أولاد علات (الأخوة لأب غير أشقاء) ليس بيني وبينه نبي) رواه البخارى.

وكان يحس هذا الإخاء مع الأنبياء جميعًا في حياته اليومية، ففي رحلته إلى الطائف يدعو قبيلة ثقيف إلى الإسلام، ردته القبيلة ردًا غير جميل أغرت به السفهاء والغلمان يرمون قدميه بالحجارة ويصرخون فيه حتى لجأ إلى بستان يعمل فيه عامل نصراني، رق قلبه للرسول فأحضر له بعض الماء والفاكهة .. وسأله الرسول: من أهل أي البلاد أنت يا عداس وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوي، فقال الرسولﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. ويعجب العامل ويسأله : وما يدريك ما يونس بن متى؟ فيقول الرسول (ذاك أخي كان نبي وأنا نبي) سيرة ابن هشام/ ج١ ص٦٧.

هدف واحد وألوان متعددة :

وفي رحلة الإسراء والمعراج التي أسرى الله فيها برسوله عليه الصلاة والسلام. من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى بالقدس الشريف، ثم عرج به بعد هذا إلى السماوات ورأى من آيات ربه الكبرى، ثم عاد إلى موطنه، وهي من التراث الذي تأثر به دانتي في الكوميدية الإلهية ..

في هذه المرحلة يحدثنا الرسولﷺ عن لقائه بالرسل، ويعطينا وصفا لأهم ملامحهم: فمنهم من غلبت عليه الأدمة - أي السواد - ومنهم من كان أسمر اللون،

ومنهم من كان أبيض ناصع البياض، يذكر هذه الألوان جميعًا دون أية تفرقة بينهم أو تفضيل على أساس من اللون، ويذكر أن صلاة واحدة جمعتهم في الليلة المباركة.

هذه باقة من الأنبياء، لقيهم الرسولﷺ في ليلة الإسراء والمعراج، كما تحدث بعد عن أصحابه الذين آمنوا به على اختلاف ألوانهم - رسلاً ومؤمنين - دون أية تفرقة بينهم .

يقول ناصحًا صاحبه أبا ذر الغفاري (رضي الله عنه):

(انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود - من السيادة - إلا أن تفضله بتقوى الله) رواه أحمد.

ولكن هذا لم يكن يسيرًا على نفوس عاشت على إنزال الأوضاع القبلية منزلة تكاد أن تكون مقدسة، يحتفظون بأنسابهم جيلاً بعد جيل بصورة يصعب - إن لم يكن من المستحيل - أن نجد لها نظيرًا في أمة من الأمم .. فكيف ينقلهم الإسلام وينقل الإنسانية بهم ومعهم إلى هذا الطريق المستقيم من الإيمان والمساواة ..[١٤]

لقد كانت هناك قبل الإسلام تفرقة في العبادة على أساس قبلي، أو قل على أساس عنصري، ومهما يكن الدافع إلى هذه التفرقة فإنها لم تخرج - موضوعيًا - عن كونها تفرقة كان على الإسلام أن يقضي عليها. وتبدأ المساواة في الإسلام بعقيدة واحدة للجميع، ليس فيها أسرارًا ولا تخصيص، وإنما الدين للناس جميعًا والله يخاطب رسوله فيقول : (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا) الأعراف ١٥٨ وهو ليس رسولاً إقليميًا ولا عنصريًا بل عالميًا.

موقف الإسلام من العلاقات الدولية

جاء الإسلام هاديًا للعالم كله، فأرشد من عاصروا التنزيل، وأضاء النور لمن جاء بعده فقرر أن الأصل في العلاقة بين الدول كالأصل في العلاقة بين الآحاد من الناس، هو السلام بصريح القرآن الكريم، وبفضل هدى النبي المصطفىﷺ وسلوكه الإنساني الحضاري في كل غزواته. فالأصل في العلاقات الدولية في الإسلام هو السلم حتى يكون الاعتداء على الدولة الإسلامية فعلا أو بفتنة المسلمين عن دينهم، وعن العقيدة وعن الحرية الدينية.

ولكون الأصل في العلاقات هو السلم الدائم، دعا القرآن الكريم إلى السلم عامة يقول سبحانه وتعالى (يا أيها الذين أمنوا أدخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) البقرة ٢٠٨.

وقوله جل في علاه (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) النساء ٩٠.

والنبي ﷺ يدعو المشركين بدعوة الله تعالى وينبئهم برسالته التي نزلت عليه من ربه، فكان يدعوهم إلى التوحيد في العبادة، ويأمرهم بالفضائل وينهاهم عن الرذائل، واعتبر السلام شعاره، ولذا قال سبحانه وتعالى (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا) سورة النساء ٩٤.

ولكن المشركين ناوؤه وأذوه هو وأصحابه، وأخرجوه من ديارهم، فلم يبقى إلا أن يمكن لدعوته، ويمنع الاضطهاد عن اتباعه، وأن يحمي حرية العقيدة لأن الإسلام يدعو إلى السلام، ولا يقبل الاستسلام للظلم، ولا سلام في الخضوع للباطل، فكان لابد من القتال لحماية السلام.

ولذلك جاء الإذن من السماء، فأذن الله سبحانه وتعالى للذين أخرجوا من ديارهم لأنهم يقولون - آمنا بالله - أن يقاتلوا وذلك ليدفع الباطل ولولا دفع الباطل بالقتال لهدمت صوامع العباد، وخربت مساجد المسلمين وكنائس المسيحيين، ومعابد اليهود، وما قام مصلح بدعوة إصلاح، فإذا كان الباطل له قوة فلابد أن يكون للحق شوكة تصيب الباطل، قال سبحانه وتعالى فى ذلك (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز) الحج (٣٩ - ٤٠).

فالركيزة الأساسية في الإسلام هي السلام وهي ركيزة هامة من ركائز الدولة الإسلامية ومما لا شك فيه أن قضية الحرب والسلام، قضية شغلت البشرية كلها منذ الأذل منذ عرف الإنسان المصالح السياسية والاقتصادية والاجتماعية.[١٥]

فلسفة الإسلام في مشروعية العلاقات الدولية

الأصل في الدولة الإسلامية، أن يخضع لسلطتها كل القاطنين على أرضها مهما كانت جنسياتهم أو دياناتهم وأرض الدولة الإسلامية حسب التعبير الفقهي السائد دار الإسلام. ويقابل دار الإسلام، دار الحرب، ودار الإسلام هي التي تجري عليها أحكام الإسلام وتسود فيها قوانينه وتشريعاته، وتخضع سكانها لسلطة الدولة الإسلامية ويأمن بأمانها سواء أكان السكان من المسلمين أم من غير المسلمين "الأجانب" ويذكر الدكتور محمد حميد الله "أن مدلول لفظ أجنبي يتغير في المجتمع الإنساني تبعًا لاختلاف الزمان والمكان والأمة، أو تباعًا لفلسفة الحياة أو الحزب أو المذهب والدين.[١٦] ويشير في موضع آخر بقوله "كل دولة تقوم على التمييز

العنصري، لن تفلح في تسيير جميع رعاياها من ذويها ومواطنيها كالدولة التي تقوم على أساس اللون أو اللسان، فمن العسير انضمام جميع الأهالي فيها في وطنية واحدة، واكتسابهم جنسية واحدة تلغي بينهم كل الفروق، ويشبه ذلك مذهب من يقول بالوطنية الجغرافية.

أما الدول التي لا تقوم إلا على أساس واحد من المشاركة في الحياة سواء أكان الأجانب الساكنون فيها مؤمنين بفلسفتها تلك أم من غير المؤمنين بها فاكتساب الجنسية فيها أيسر منه في أي دولة أخرى تقوم على أسس عنصرية أو جغرافية.

ومن هنا كان الإسلام وسيظل كذلك شامخ الرأس يعلو ولا يعلى عليه لأنه قضى على التمييز العنصري واللوني والجغرافي وغير ذلك من ألوان التمايز وترك من تراث الأخوة الإسلامية ما لم يستطع هدمه السيل الجارف من الأفكار الغربية ولا تيار الأفكار الشرقية إذ الإسلام فلسفة وطريقة منهج حياة ونظام شامل ومتكامل لتطور الحياة من جميع جوانبها، وذلك ما جعل الدين والسياسة فيه يصطبغان بصبغة واحدة بوصفها فرعين من أصل واحد، وكانت النتيجة من ذلك أن مفهوم الأجانب في الدولة الإسلامية أمسى مرادفًا لغير المسلمين.

ولقد وضع القرآن الكريم أسس العلاقات بين المجتمعات مما نطلق عليه في العصر الحديث اسم القانون الدولي، فلكل دولة أو جماعة بشرية حق البقاء في سلم وأمان ويحذر القرآن من الاعتداء على الآخرين بقوله تعالى "ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" البقرة ١٩٠.

وحرص الإسلام على تقديس المعاهدات والمواثيق فإذا أبرم مجتمع عهدا مع مجتمع أخر فإن هذا العهد يجب أن يكون مقدسًا وهو ما يحاول المجتمع الحديث أن يصل إليه دون أن يوفق لذلك فالمعاهدات تنقض بمجرد أن يتقوى أحد الطرفين على نقضها، أما الإسلام فيجعل ذلك في الأمور المحظورة :

"وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم" النحل ٩١ "وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا" الإسراء ٣٤ "إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم" التوبة ٧ والسلام هو الأصل في علاقة المجتمعات ببعضها بعضا يقول الله سبحانه وتعالى "وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله" الأنفال ٦١.

ونجد في القرآن آخر ما انتهى إليه الفكر البشري في فض المنازعات الدولية عن طريق التحكيم والمصالحة والقضاء بموجب الحق والقانون والاتفاقات الدولية، فإن أبى أحد الطرفين إلا أن يمضي في اعتدائه لأخذ ما ليس من حقه فقد أصبح على الأسرة الدولية أن تتدخل لردع العدوان فإذا تم ردع المعتدي فقد وجب الفصل في النزاع على أساس من الحق والعدل. "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا

فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين" الحجرات ٩.

وإن كان هذا هو مدى جلال المبادئ الإسلامية في حكم العلاقات العامة فباستطاعتنا تصور الأحكام التي نظم بها أدق العلاقات الشخصية والمعاملات المدنية فجعل الباحثين يقفون مذهولين من عظمة هذا التشريع واتساع مداه وحسبنا في ذلك أن معظم القوانين والتشريعات في أحكام الطلاق والميراث والزواج في جميع أنحاء العالم المتحضر مستمدة من تعاليم الإسلام وأحكام القرآن.

وليس هناك أدنى مجال للشك في أن تعاليم القرآن الكريم ومبادئ الإسلام قادرة في كل زمان ومكان ليس فقط على مواجهة التطور الحضاري، بل على التحرك المستمر للأمام وعدم الاستكانة، وأن الضعف الذي أصاب أمة الإسلام كان مصدره العوامل المختلفة التي تتصل بالبعد عن جوهر وروح القرآن والاكتفاء بالشكليات والقوانين الوضعية بدلاً من المبادئ الربانية وإقفال باب الاجتهاد مع التواكل والجمود والابتعاد عن الدين.

وتستطيع تلمس جلال المبادئ ودقة الأحكام العامة والخاصة بتدبر معنى هذه الآيات : "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا. والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا. والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا. إنها ساءت مستقرًا ومقامًا والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا. والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا. إلا من تاب وأمن وعمل عملا صالحًا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورًا رحيمًا. ومن تاب وعمل صالحًا فإنه يتوب إلى الله متابًا. والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مرورا كراما. والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًا وعميانًا. والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما. أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلامًا. خالدين فيها حسنا مستقرا ومقاما قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزامًا ..) الفرقان ٦٣ - ٧٧.

تلك مبادئ سماوية تنظيم علاقات الأفراد والمجتمعات وتصف أخلاقيات التعامل بين الناس .. إنها مبادئ تعد أصولاً لكثير من القوانين الوضعية الدولية وقوانين الأحوال الشخصية في كثير من بلدان العالم.

سماحة الإسلام مع مخالفيه

وكما أن الإسلام دين الرحمة والهداية والحق والعدالة فهو دين العقل والمنطق والفطرة حتى مع مخالفيه ومن شواهد ذلك :

١- أنه لا يمثل بعدوه ولا يتشفى منه إذ ظفر به .. ومعارك الإسلام الفاصلة شاهد على ذلك والتاريخ وحده يشهد بحسن معاملة صلاح الدين الأيوبي للصليبيين المهزومين.. بينما يذكر فواجع الوطن الإسلامي على يدهم قبل الهزيمة.

٢- أنه لا يكرههم على اعتناق عقيدته، بل يدع لهم حرية العبادة معها، "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" البقرة ٢٥٦ "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.." الكهف ٢٩.

٣- أنه يحافظ على دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحياتهم، وجميع حقوقهم الإنسانية.

٤- أنه يمتعهم بخير الوطن الإسلامي بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام.

٥- أنه يدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم في غير ما يتعلق بالنظام والأمن العام.

٦- أنه لا يجندهم ولا يسخرهم في خدمة أهدافه، بينما كان الرومان واليونان والفرس يسخرون المغلوبين قسرا لخدمة أراضيهم وأطماعهم.

شهادة الأجانب بتسامح الإسلام

يقول روبرتسوف : ".. إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحاسم تركوا من لم يرغبوا فيه أحرارا في التمسك بدينهم ..".

ويقول الراهب "ميشو": "إن القرآن الذي أمر بالجهاد متسامح مع أتباع الأديان الأخرى وقد أعفى البطارقة والرهبان وخدمهم من الضرائب، وحرم قتلهم لعكوفهم على العبادة".

وروى غوستان لوبون في كتابة "حضارة العرب" : إن "ريتشارد قلب الأسد" قائد الحملة الصليبية الثالثة قد قتل ثلاثة آلاف مسلم بعد أن أعطاهم الأمان واستسلموا فخان العهد الموثق بحقن دمائهم.

بينما ذكر عن صلاح الدين أنه لم يمس النصارى بأذى وأمد ريكادروس وفيليب أوغسطس بالزاد والمرطبات وبعث طبيبه الخاص لعلاج قادة الفرنجة.

وتقول الدكتورة : "زغريد هونكه" في كتابها : "شمس العرب تسطع على الغرب":

".. لعل أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب في سماحتهم حتى أن الملك الفارسي "كيروسي" قال "إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون

كمخربين . فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب إن هو إلا أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف الأدلة.

هذه هي سماحة الإسلام ومبادئه وأحكامه .. وهي سماحة لا يوازيها شئ في العقائد الأخرى.(١٧)

الإسلام يدعو الناس إلى السلم

وقد دعى الإسلام إلى السلام في قوله "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم" المائدة ١٥ - ١٦ قال ابن كثير (سبل السلام أي طريق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم أي ينجيهم من المهالك ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور ويحصل لهم أحب الأمور وينفي عنهم الضلالة ويرشدهم إلى أقوم حالة)(١٨).

فالسلم نعمة والحرب بكل أشكالها نقمة وهذه فلسفة الإسلام وطبيعة دعوته ومثاليته في الأسوة الحسنة التي بازدهارها ارتفعت أعلامه، وسادت شريعته وأحكامه(١٩) ذلك أن المسلم هو أساس البناء للمجتمع الإنساني وهو مشرق شمس الألفة عليه وقوة الأواصر المتشابكة به ولا تكون الحرب إلا للدفاع عن هذا الأساس من السلام ليظل المجتمع المسلم قائمًا وشامخًا متماسكًا ولتبقى الألفة حول الإيمان مشرقة والأواصر في طاعة الله قوية. ومن هنا فإن فلسفة القرآن المرشدة إلى سبل السلام وإلى نعم الحياة قد جاءت من الله تعالى ومن أظهر معاني في سبل السلام أنه لا يكره أحد على الإسلام وآية ذلك أن الله أمر بموادعة من ألقوا السلام إلى المسلمين وإتمامًا وضمانًا لاستمرار وقيام دعوة الإسلام على السلام كان من صلاح الأمر أن يكون السلام حافظا لقوة المسلمين ودافعًا أذى أعدائهم عنهم.

وقد حرص الإسلام في وصاياه على السلم والسلامة طلبا لوحدة الأمة ووقاية من كل ما يفرق صفوفها ويضعف قوتها قال تعالى "واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا" آل عمران ١٠٣ وقوله "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" الأنفال ٤٦، وفي الحديث الشريف قال ﷺ "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" وفي هذا الحديث ما يشير إلى معنى دقيق سام حث تلوح عبارته وتسير إلى أن تسمية المسلم بهذا الاسم الذي منه اشتق اسم الإسلام إشارة إلى معنى سلم جعل الناس سالمين من أذاه وليس معناه فقط جعل نفسه سلما لله وفي هذا التعليل إغراء على المسالمة وتحذير من مضارة الناس إذ في حالة المضارة بالأذى يكون حمل لقب الإسلام كأنه يحمله زورا وهو ليس أصل له.

اتجاه الإسلام نحو المثالية

إن الإسلام يوجب العدل ويحرم الظلم ويجعل من تعاليمه السامية وقيمه الرفيعة من المودة والرحمة والتعاون والإيثار والتضحية وإنكار الذات ما يلطف الحياة ويعطف القلوب ويؤاخي بين الإنسان وأخيه الإنسان. وهو بعد ذلك كله يحترم العقل الإنساني ويقدر الفكر البشري ويجعل العقل والفكر وسيلتين من وسائل التفاهم والإقناع، فهو لا يرغم أحد على عقيدة معينة ولا يكره إنسان على نظرية خاصة بالكون أو الطبيعة أو الإنسان وحتى في قضايا الدين يقرر أنه لا إكراه في الدين وأن وسيلته هي استعمال العقل والفكر والنظر فيما خلق الله من أشياء ويقول الله تعالى "لا إكراه في الدين. قد تبين الرشد من الغي" البقرة ٢٥٦ ويقول "يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرًا" الأحزاب ٤٥- ٤٦.

فلسفة العلاقات الإنسانية في الإسلام

لا شك في أن الإسلام قد جعل العلاقة بين الأفراد وبين الجماعات وبين الدول علاقة سلام وأمان يستوي في ذلك علاقة المسلمين بعضهم ببعض وعلاقة المسلمين بغيرهم وفيما يلي بيان ذلك :

أ – علاقة المسلمين بعضهم ببعض

١- جاء الإسلام ليجمع القلب إلى القلب ويضم الصف إلى الصف مستهدفا إقامة كيان موحد ومتقيا عوامل الفرقة والضعف وأسباب الفشل والهزيمة ليكون لهذا الكيان الموحد القدرة على تحقيق الغايات السامية والمقاصد النبيلة والأهداف الصالحة التي جاءت بها رسالته العظمى من عبادة الله وإعلاء كلمته وإقامة الحق وفعل الخير والجهاد من أجل استقرار المبادئ التي يعيش الناس في ظلها آمنين. وهناك روابط من شأنها أن تجعل بين المسلمين تماسكًا قويًا وتقيم منهم كيانًا يستعصي على الفرقة. وأول رباط من الروابط الأدبية والنفسية والروحية هو رباط الإيمان فهو المحور الذي تلتقي عنده الجماعة المؤمنة فالإيمان يجعل إخاء المؤمنين إخاء أقوى من إخاء النسب.

يقول الله تعالى "إنما المؤمنون أخوة" الحجرات ١٠ ويقول أيضًا "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض" التوبة ٧١ ويقول ﷺ (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) رواه الترمذي والمؤمن يحس بإحساس أخيه المؤمن ويشعر بشعوره ويفرح لفرحه ويحزن لحزنه ويرى أنه جزء منه. قال ﷺ (مثل المؤمنين في

توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) رواه أحمد.

وترى أن الإسلام يدعم هذا الرباط ويقوى هذه العلاقة بالدعوة إلى الاندماج في الجماعة والانتظام في سلكها. وينهى عن كل ما من شأنه أن يوهن من قوته أو يضعف من شدته فالجماعة دائمًا في رعاية الله وتحت يده قال ﷺ "يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار" رواه الترمذي.

والجماعة مهما صغرت فهي على أي حال خير من الوحدة وكلما كثر عددها كانت أفضل وأبر وفي الحديث الشريف "الاثنان خير من واحد والثلاثة خير من الاثنين والأربعة خير من الثلاثة فعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمتي إلا على هدى" رواه أحمد.

وعبادات الإسلام كلها تؤدي إلى جماعة. فالصلاة تسن فيها الجماعة وهي تفضل عن صلاة الفرد بسبع وعشرون درجة، والزكاة معاملة بين الأغنياء والفقراء والصيام مشاركة جماعية ومساواة في الجوع في فترة معينة من الوقت. والحج ملتقى عام للمسلمين جميعًا يجتمعون من أطراف الأرض على أقدس غاية قال ﷺ ".. ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يقرؤون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وحفتهم الرحمة وذكرهم الله في ملأ عنده" رواه أبو داود.

ولقد كان الرسول ﷺ يحرص على أن يجتمع المسلمون حتى في المظهر الشكلي فقد رآهم يوما وقد جلسوا متفرقين فقال لهم "اجتمعوا" وإذا كانت الجماعة هي القوة التي تحمي دين الله وتحرس دنيا المسلمين فإن الفرقة هي التي تقضي على الدين والدنيا معا ولقد نهى عنها الإسلام أشد النهي إذ أنها الطريق المفتوح للهزيمة ولم يؤت الإسلام من جهة كما أتى من جهة الفرقة التي ذهبت بقوة المسلمين والتي تخلف عنها الضر والفشل والذل وسائر ما يعانون منه". قال تعالى "ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم" آل عمران ١٠٥ وقال "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم" الأنفال ٤٦.

ولن تصل الجماعة إلى تماسكها إلا إذا بذل لها كل فرد من ذات نفسه وذات يده وكان عونا لها في كل أمر من الأمور التي تعاونها سواء أكانت هذه المعاونة معاونة مادية أو أدبية وسواء أكانت معاونة بالمال أو العلم أو الرأي أو المشورة. فالناس عيال الله أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله قال ﷺ "خير الناس أنفعهم للناس" رواه القضاعي عن جابر وقال "اشفعوا تؤجروا" (رواه ابن عساكر).

وهكذا يعمل الإسلام على تحقيق هذه الروابط حتى يخلق مجتمعًا متماسكًا وكيانًا قويًا يستطيع مواجهة الأهداف ورد عدوان المعتدين وما أحوج

المسلمين في هذه الآونة إلى هذا المجتمع فإنهم بذلك يقيمون فريضة إسلامية ويحرزون كسبا سياسيا ويحققون قوة عسكرية تحمي وجودهم، فلقد ترك الاستعمار آثار سيّئة من ضعف في التدين وانحطاط في الخلق وتخلف في العلم ولا يمكن القضاء على هذه الآفات الاجتماعية الخطيرة إلا إذا عادت الأمة الإسلامية موحدة الهدف متراصة البنيان مجتمعة الكلمة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

العلاقة بين المسلمين وغيرهم

علاقة المسلمين بغيرهم علاقة تعارف وتعاون وبر وعدل يقول الله تعالى في التعارف المفضي إلى التعاون :

(يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) الحجرات ١٣ ويقول في الوصاة بالبر والعدل:

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) الممتحنة ٨.

ومن مقتضيات هذه العلاقة تبادل المصالح وإطراد المنافع، وتقوية الصلات الإنسانية وهذا المعنى لا يدخل في نطاق النهي عن موالات الكافرين إذ أن النهي عن موالاة الكافرين يقصد به النهي عن محالفتهم ومناصرتهم ضد المسلمين. إذ أن مناصرة الكافرين على المسلمين فيه ضرر بالغ بالكيان الإسلامي وإضعاف لقوة الجماعة المؤمنة كما أن الرضى بالكفر كفر يحرمه الإسلام ويمنعه أما المولاة بمعنى المسالمة والمعاشرة الجميلة والمعاملة بالحسنى وتبادل المصالح والتعاون على البر والتقوى فهذا ما دعا إليه الإسلام.

كفالة الحرية الدينية لغير المسلمين

ولهذا قرر الإسلام المساواة بين الذميين والمسلمين فلهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم وكفل لهم حريتهم الدينية فيما يأتي:

١- عدم إكراه أحد منهم على ترك دينه أو إكراه على عقيدة معينة .

٢- من حق أهل الكتاب أن يمارسوا شعائر دينهم فلا تهدم لهم كنيسة ولا يكسر لهم صليب. بل من حق زوجة المسلم (اليهودية والنصرانية) أن تذهب إلى الكنيسة او إلى المعبد ولا حق لزوجها أن يمنعها. يقول تعالى "اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن

أجورهم محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين" المائدة ٥.

٣- أباح الإسلام زيارتهم وعيادة مرضاهم وتقديم الهدايا لهم فمن الثابت أن رسول اللهﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي.

٤- أباح الإسلام ما أباحوه بينهم من الطعام وغيره فلا يقتل لهم خنزير ولا تراق لهم خمر ما دام ذلك جائز عندهم. وهو بهذا أوسع عليهم أكثر من توسعت على المسلمين الذين حرم عليهم الخمر والخنزير.

٥- لهم الحرية في قضايا الزواج والطلاق والنفقة ولهم أن يتعرفوا كما يشاءون فيها دون أن توضع لهم قيود أو حدود.

٦- احترم الإسلام كرامتهم وصان حقوقهم وجعل لهم الحرية في الجدل والمناقشة في حدود العقل والمنطق مع التزام الأدب والبعد عن الخشونة والعنف قال تعالى "ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلاهنا وإلاهكم واحد ونحن له مسلمون" العنكبوت ٤٦.

٧- سوى بينهم وبين المسلمين في العقوبات في رأي بعض المذاهب. وفي الميراث سوى في الحرمان بين الذمي والمسلمين فلا يرث الذمي قريب المسلم ولا يرث المسلم قريبة الذمي.

٨- أحل الإسلام طعامهم والأكل من ذبائحهم والتزاوج بنسائهم.

الموالاة المنهي عنها :

هكذا تكون العلاقة بين المسلمين والذمي إذا لم تكن هناك حرب من جانبهم أما إذا وجدت الحرب فيجب تمزيق هذه العلاقة ومنعها نهائيا حيث يقول القرآن الكريم "لا يتخذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شئ إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه" آل عمران ٢٨.

حيث تضمنت هذه الآية كثيرًا من المعاني سوف نشير إليها على النحو التالي:

١- التحذير من الموالاة والمناصرة للأعداء.

٢- من يولى الأعداء فهو مقطوع عن الله لا يربطه رابط.

٣- في حالة الضعف والخوف من أذاهم تجوز الموالاة ظاهرا.

وهذا وقد كان رجال من المسلمين يوالون رجالا من الكفار لما كان بينهم من قرابة أو جوار أو محالفة وكانت هذه الموالاة خطرا فأنزل الله عز وجل محذرا من هذه الولاية الضارة فقال "يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا

يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صدرهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون". آل عمران ١١٨.

فهذه الآية تنهي عن اتخاذ غير المؤمنين بطانة وأصدقاء تطلعهم على أسراركم لأن فيها إفساد الدين والدنيا.

ويقول تعالى : (لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) "المجادلة ٢٢" حيث أنه لا يصح أن يوجد بين المؤمنين من يصادقون أعداءهم ولو كان هؤلاء الأعداء آباء المؤمنين وأبنائهم أو إخوانهم الأقربين[٢٠].

الاعتراف بحق الفرد

والإسلام بعد أن أشار بمبدأ السلام وجعل العلاقة بين الناس علاقة أمن وسلام حيث أنه احترم الإنسان وكرمه من حيث هو إنسان بصرف النظر عن جنسه ولونه ودينه ولغته ووطنه وقومه ومركزه الاجتماعي. فقد قال تعالى "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا" الإسراء ٧٠ ومن أجل أن يكون هذا التكريم حقيقة واقعة وأسلوبًا في الحياة كفل الإسلام جميع حقوق الإنسان وأوجب حمايتها وصيانتها سواء أكانت حقوق دينية أو مدنية أو سياسية.

ومن هذه الحقوق

١- حق الحياة :

اهتم الإنسان بحقوق الإنسان وعنى المفكرون بشرحها واحترامها والالتزام بها تلك التي وضع أساسها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فإن من حق الإنسان أن يتمتع بالاطمئنان على حياته واحترامها وصيانتها ويعتبر هذا الحق من أهم الحقوق الطبيعية للإنسان حيث لا تتوقف عليه سعادة الإنسان فحسب بل تتوقف عليه حياته نفسها ومن مميزات هذا الحق عن غيره أنه يأتي إلى الإنسان مباشرة من خالقه وليس منحة من أي إنسان آخر ومعنى هذا أنه لا يحق لأي إنسان أن يحرم نفسه ولا غيره من حقه في الحياة[٢١].

فلكل إنسان حق صيانة نفسه وحمايتها فلا يحل الاعتداء عليها إلا إذا قتل أو أفسد في الأرض فسادا يتوجب القتل يقول تعالى "من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا" المائدة ٣٢ قال القرطبي (قال ابن عباس : من قتل نفسا واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعا ومن ترك قتل نفس

واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفا من الله فهو كمن أحيا الناس جميعًا وعنه أيضًا المعنى فكأنما قتل الناس جميعًا عند المقتول ومن أحياها واستنقذها من هلكة فكأنما أحيا الناس جميعا عند المستنقذ)[٢٢].

٢- حق صيانة المال :

فكما أن النفس معصومة فكذلك المال فلا يحل أخذ المال بأي وسيلة من الوسائل غير المشروعة يقول تعالى "يا أيها الذين أمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم" النساء ٢٩.

٣- حق المحافظة على العرض والكرامة

ذلك أن للعرض والكرامة حرمتهما ولا يجوز المساس بهما في الإسلام ولو بكلمة تقال في غيبة الإنسان وهي صدق فكيف إذا كان الكلام افتراء لا أصل له؟! إنها حين إذ تكون إثمًا عظيمًا قال تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا) الأحزاب ٥٨ والإسلام كما حرم الغيبة حرم القذف وإشاعة الفاحشة في المجتمع والهمز واللمز والتنابذ بالألقاب والسخرية بالناس وتوعد مرتكبيها بأشد العذاب صيانة للأخوة والعلاقات الطيبة وحفاظا على العرض والكرامة قال تعالى (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) النور ١٩ وقال تعالى (ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم) القلم ١٠ - ١٢ وقالﷺ (سباب المسلم وقتاله كفر) رواه البخاري.

٤- حق الحرية.

ولم يكتف الإسلام بتقرير صيانة الأنفس وحماية الأعراض والأموال بل أقر حرية العبادة وحرية الفكر وحرية اختيار المهنة التي يمارسها الإنسان لكسب عيشه وحرية الاستفادة من جميع مؤسسات الدولة. وأوجب الإسلام على الدولة المحافظة على هذه الحقوق جميعها، ذلك لأن الحرية هي عنوان العدالة والإخاء والمساواة التي تربط بين بني البشر بأوثق روابط المحبة والألفة والحرية في أبسط معانيها الإسلامية هي قدرة الفرد على عمل مالا يضر بغيره أو هي أن يقول ويعمل ما يشاء مما لا ينافي العدل والقانون ولا يضر بالآخرين ومن بين مفهوم الحرية العامة والحرية الشخصية والمدنية وحرية التفكير والتعبير والحرية الدينية وبالرغم من أن كل حرية لها معناها الخاص بها ومجالها وشروطها ومبادئها إلا أنها مترابطة ومتداخلة ويكمل بعضها بعضا ويتوقف بعضها على البعض الآخر، هذا وقد كفل الإسلام الحرية الاجتماعية لجميع الذين يستظلون بظله وذلك عندما كرم بني آدم على الإطلاق

وفضلهم على كثير من خلقه لأنهم جميعا منحدرين من أب واحد وأم واحدة ولا فضل لأحدهم على الآخر بحسب طبيعته وعنصره وإنما يرجع التفاضل بينهم إلى أمور خارجة عن طبيعتهم الإنسانية نفسها يأتي في مقدمتها تقوى الله والمحافظة على حدود الدين والعمل الصالح وما يقدم من خير ونفع، فقد دعا الإسلام إلى طلب الرزق والعلم والتكافل والتضامن والتراحم ونهى عن التعالي والتعصب والاستغلال والتسلط والظلم والطمع والجشع والأنانية والاحتكار والتناحر والتنافس[٢٣] قال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات ١٣.

وأن حقوق الإنسان لا تنتهي عند هذا الحد بل هناك حقوق أخرى منها.

٥- حق المأوى :

فالإنسان له الحق أن يأوي إلى مكان دون حجر عليه أو وضع عقبات في طريقه إلا لمن يرتكب مخالفة يؤذي بها المجتمع ويعرضه للخطر في ذلك يقول تعالى "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم" المائدة ٣٣- ٣٤.

٦- حق الرأي :

من حق الإنسان أن يتعلم ويرقي نفسه بالعلم ويفصح عن رأيه ويعلنه بصراحة لأن الإسلام يمنع من مصادرة الرأي ومحاربة الفكر الحر إلا إذا كان ذلك ضارًا بالمجتمع.

ويقول الله تعالى "إن الذين يكتمون ما أنزلت من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم" البقرة ١٥٩ - ١٦٠.

٧- حق العمل

يقرر الإسلام حق الإنسان في العمل وواجبه نحوه ثابتًا ومصانًا في كثير من نصوص الدين التي تحض على العمل والترغيب فيه وتبين فضله وتنفر من الكسل والتراخي والبطالة والتواكل وسؤال الناس وإراقة دماء الوجه قال تعالى (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) التوبة ١٠٥ وبجانب حق العمل بالراتب المناسب فإن له حقوقا أخرى كثيرة في الإسلام مكملة له مثل حق الاحترام والتقدير في عمله وحق التمتع بالجو النفسي والاجتماعي المستقر لإقامة علاقات اجتماعية طيبة مع بني جنسه[٢٤].

جريمة إهدار الحقوق :

ومن هنا نلاحظ أن أي إهدار أو نقص لحق من حقوق الإنسان يعتبر جريمة من الجرائم وهذا هو السبب الحقيقي في منع الإسلام للحرب أيا كان نوعها لأن الحرب كونها اعتداء على الحياة وهي حق مقدس فهي تدمير لما تصلح به الحياة. قال تعالى "ولا يجر منكم شنئان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب "المائدة ٢ ومنع حرب التخريب والتدمير فقال تعالى "ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها" الأعراف ٥٦.

قال القرطبي نهى سبحانه عن كل فساد قل أو كثر بعد صلاح قل أو كثر فهو على العموم على الصحيح من الأقوال وقال الضحاك معناه لا تعوروا الماء المعين ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرارا وقد ورد قطع الدنانير من الفساد في الأرض وقد قيل تجارة الحكام من الفساد في الأرض وقال القشيري المراد ولا تشركوا فهو نهى عن الشرك وسفك الدماء والهرج في الأرض وأمر يلزم الشرائع بعد إصلاحها بعد أن أصلحها الله ببعثه الرسل[٢٥].

أهم النتائج التي أسفرت عنها الدراسة

لقد أسفرت هذه الدراسة عما يلي

١- لقد وضع الإسلام الأسس التي يؤدي إلى إقرار السلام حيث دعا إليه في الدنيا والآخرة.

٢- السلام في الإسلام منهج وطريقة وأسلوب حياة وفلسفة للأنبياء والمرسلين ولكافة الناس.

٣- إن كلمة السلام لها معاني كثيرة في الفكر الإسلامي وكل معانيها تنافي الاستغلال والاستعمار وأنه مرتبط بالسلوك الأخلاقي، حيث يدعو أهله بالبعد عن الظلم والعدوان وتوخي العدل والمساواة.

٤- أن السلام والعدل هما القاعدتان الأساسيتان للمجتمع البشري تنظم على أساسهما جميع مناحي الحياة الإنسانية.

٥- إن مفهوم العدل في الإسلام يحقق السلام للبشرية أجمع، لقد أسهم الإسلام بفلسفته في تدعيم أسس السلام فالسلام هو هدف دعوته وثمرتها المنشودة.

٦- عمل الإسلام على غرس السلم والسلام في شعور ووجدان أتباعه ومنعهم أن يزجوا بأنفسهم إلى التهلكة.

٧- أصبح السلام جزء من عقيدة المسلم وكيانه ذلك لأن الإسلام يحب الحياة وتقديسها.

٨- يرسم الإسلام الطريقة المثلى لتعيش الإنسانية متجهة إلى غايتها من الرقي والتطور والازدهار.

٩- إن كثرة تكرار لفظ السلام من شأنه أن يوقظ الحواس ويوجه الأفكار والأنظار إلى مبدأ السلام ويجعل السلام فلسفة للإسلام .

١٠- السلام فكرة أصيلة وعميقة ومتصلة بمفهوم الإسلام عن الكون والحياة والإنسان.

١١- وحد الإسلام بين مفردات الكون من جماد ونبات وحيوان وإنسان باعتبار أن الكون كله صادر عن الإرادة الإلهية وأنه يرجع إلى مادة واحدة.

١٢- أن البشر خلقوا من أجل غايات منها عمارة الأرض وإقامة التعاون والتعارف والتكاتف والمودة والرحمة بين بني البشر.

١٣- إن رسالة الله في أصلها وجذورها والمؤمنون بها أمة واحدة ولا فرق بين الأنبياء والمرسلين وعلى ذلك فالإنسانية أسرة واحدة في نظر الإسلام كما أثبت ذلك البحث العلمي.

١٤- القرآن يمجد الأنبياء السابقين ويذكر ما لهم من فضل في سبيل الحق.

١٥- الإسلام يدعو الناس إلى الاقتداء بالأنبياء والمرسلين في إقرارهم لقيم العدل والحق والخير وأن الأنبياء لهم قداستهم على مر العصور ذلك لأن جهودهم مشتركة وهدفهم واحد.

١٦- لقد قضى الإسلام على العصبية والعنصرية وبسط مبدأ المساواة وخاطب القرآن الناس كافة وإن رسالة الرسولﷺ كانت للناس جميعًا.

١٧- إن الأصل في العلاقات الدولية في نظر الإسلام هو السلم الدائم لا الاستسلام للباطل والدفاع عن الدعوة الإسلامية وصيانة النفس والمال والعرض من الاعتداء.

١٨- إن فلسفة وطريقة ومنهج حياة ونظام شامل ومتكامل لتطور الحياة من جميع جوانبها.

١٩- حرص الإسلام على تقديس المعاهدات والمواثيق وهذا ما يحاول المجتمع الحديث الوصول إليه.

٢٠- لقد وضع الإسلام مبادئ سماوية تنظم علاقات الأفراد والمجتمعات وتصف طرق التعامل بين الناس على أسس أخلاقية ومبادئ تعد أصلا لكثير من القوانين الوضعية الدولية فهو دين العقل والمنطق حتى مع مخالفيه فهو يمثل أو يتشفى فيهم إذا ظفر بهم بل يحافظ على أموالهم وأعراضهم وحياتهم وجميع حقوقهم الإنسانية.

٢١- نجد في القرآن الكريم آخر ما انتهى إليه الفكر البشري في سبل فض المنازعات الدولية عن طريق التحكيم والمصالحة بموجب الحق والعدل والاتفاق.

٢٢- العبادات في الإسلام تشعر بالوحدة والمساواة وتغرس الإخاء فلقد حرص الإسلام على السلم الداخلي حرصه على السلام العالمي ونهى عن الفرقة والنزاع.

٢٣- أقر الإسلام حقوق الإنسان منها حق الحياة والمحافظة على المال والعرض والكرامة وحق المأوى والعمل واعتبر أي خلل أو تقصير في هذه الحقوق جريمة.

٢٤- دعا الإسلام المؤمنين عامة إلى السلام بكل صوره وشتى أنواعه.

٢٥- وأمر بأن يفرض في الداعي إلى السلام والإخلاص، إلا أن يكون منه ما يدفع الاسترابة في أمره، أي شك.

٢٦- ونصوص القرآن محكمة شاملة، تعم أحكامها كل العصور، ولا تخص عصرًا من العصور، ولكن الإسلام لم يكتف بالدعوة المجردة، بل عمل بأحكامه ومبادئه على المحافظة على سلم عزيزة كريمة، لا تذل فيها الشعوب، ولا يستضام الضعفاء، فإنّ كل سلم لا يراعى فيها حقُّ الضعيف، هي حرب في صورة سلم، لأنها ظلم، والسلام الحقيقي والظلم الدولي نقيضان لا يجتمعان.

٢٧- ولذلك قرر الإسلام مبادئ ستة لحماية السّلام وجعله في دائرة الحق والعدل، وتلك المبادئ هي : احترام الكرامة الإنسانية، واحترام الفضيلة، واحترام العدالة وجعلها الحكم الفصل في العلاقات بين الشعوب كما هي الحكم الفصل في العلاقات بين الآحاد، والرحمة ببني الإنسان أينما كانوا وحيثما ثقفوا، والوفاء بالعهد، وعون الضعفاء. وإنّ تلك المبادئ لو اتّبعت على وجهها ما كانت حرب إلا لدفع البغاة أي الاعتداء والظلم.

ونعرّج على كل مبدأ من هذه المبادئ الإنسانية العالية المتآخية بكلمة موجزة موضحة:

وأول هذه المبادئ احترام الكرامة الإنسانية، ولقد دعا الإسلام إلى ذلك بالقول والعمل.

وإنّ تلك الكرامة الإنسانية التي قررها الإسلام، هي ثابتة بوصف كونه إنسانًا لا فرق في هذه الكرامة واستحقاقها بين لون ولون، ولا بين جنس وجنس، ولا بين إقليم وإقليم، ولا بين متحضرين وبدويين، ولا بين متقدمين ومتخلّفين، فكلّ أولئك من بني الإنسان، يستحقون هذه الكرامة بمقتضى الإنسانية، وكما أنّه لا فرق بالجنسية، كذلك لا فرق بين دين ودين.

٢٨- ولقد قرّر محمد بن عبد الله الوحدة الإنسانية فقال : "كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربيّ على عجميّ إلا بالتقوى". ولقد أكّد الإسلام هذه الوحدة فضل توكيد فقال تعالى : كان النّاس أمّةً واحدةً[٢٦].

٢٩- وإذا كان تفاوت بين بني الإنسان فى المعرفة والقوة والمدارك والحضارة، فقد جعل الإسلام الرّحمة - وهي المبدأ الثاني - أساسًا للعلاقات الإنسانية، سواء أكانت بين الآحاد أم كانت متعلّقة بالجماعات، وإنّ رحمة الإسلام تعُمّ ولا تخُصّ، وهي تعم كل من في الأرض من إنسان، ولقد قال النبيّ ﷺ : "الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". وإنّ الرّحمة الإنسانية التي يدعو إليها الإسلام تعُمّ الموافق والمخالف، بل تعم قوم المقاتلين.

٣٠- وعلى ذلك مدة الموادعة[٢٧] بين قريش والنبيﷺ التي تقرّرت بمعاهدة الحديبية. بلغ النبيﷺ أنه قد أصابتهم جانحة[٢٨] وقحط. فأرسل إلى أبي سفيان بن حرب خمسمائة دينار ليشتري بها قمحًا ويوزّعه على الضعفاء.

وكان من مقتضى الرّحمة التي قررها الإسلام في العلاقة بين الناس آحادًا وجماعات ودولاً، أن فرض معاونة الضعفاء مبدأ من مبادئه، سواء أكان الضّعف في الآحاد أم في الدّول. ولقد قال النبيﷺ : "لعن الله من رأى مظلومًا فلم ينصره"[٢٩].

ولقد حضر النبيﷺ حلف الفضول الذي تمّ في بيت عبد الله بن جدعان قبل البعث المحمدّي وهو في العشرين من عمره. وكانت مبادئ هذا الحلف تقوم على نُصرة المظلوم.

وإن نصرة الضّعفاء من أسباب الوقاية من الحروب؛ فإنّ التغالب بين الأقوياء لأكل الضعفاء هو المحرّك للحروب في عصرنا، إذ إنّ كلّ قويّ يريد أن يجعل أرض الضّعيف مطلبًا ومستغلاً له يستنزف ثرواته، ويأكل خيراته، ويستخرج من أرضه كنوزها، ويطغى بها عليه. ولو أنّ القوانين الدّولية اتّجهت إلى حماية الضعفاء، ووقتهم من استغلال الأقوياء، لفتح باب السّلام، ولكنها المغالبة لأكل الضعيف كما تتغالب الذئاب لاقتناص الحمل الوديع، والنُّظم والمعاهدات تنظم الموائد التي تؤكل فيها حقوق الضّعفاء، فالإسلام بالتفاته إلى الضعيف يعينه، ويقي العالم شر الحرب وويلاتها وما تسفر عنه من دمار.

٣١- والمبدأ الرابع من المبادئ التي قررّها الإسلام في العلاقات الإنسانية، ومن شأنها أن تحمي الإنسان من ويلات الحروب وطغواها، مراعاة الفضيلة في الحروب، فإنه يجب أن تسود الفضيلة العلاقات الإنسانية الدولية كما تسود العلاقات الآحادية، فإنّ مبادئ الأخلاق التي ترسم السّلوك الفاضل، تحكم العلاقات الدولية كما تحكم العلاقات الآحادية، لأن الفضيلة لا تتجزأ، وحكمها واحدٌ لا يختلف، ولو أنّها سادت الحروب في ابتدائها وفي سيرها وانتهائها، لكانت تسير في طريق إنساني مستقيم، فإنّ الفضيلة تقضي ألاّ تقوم حربٌ إلاّ لظلم واقع أو لفساد يدفع، ولا تكون للغلب والفتك، ولا تكون لإهلاك الحرث والنسل، ولا تكون سعيًا في الأرض بالفساد. ولا لأكل مال الضّعفاء والسّيطرة عليهم، فإنّ هذا كلّه مناقض للفضيلة ومناف لكل خلق كريم.

بل أمرنا الله تعالى أن نعطف على الفقراء والمساكين قال تعالى : "ويطعمون الطعام على أحبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا"[٣٠].

ولقد نهى عليه الصلاة والسلام عن المثلة فقال : "إياكم والمُثلة". ونهى عن القتل بالتجويع.

وإذا انتهيت الحرب، تحكم الفضيلة أيضًا، فلا يقول النبيﷺ ولا غزاة الإسلام المجاهدون: "ويلٌ للمغلوب" كما يقول ساسة اليوم بلسان الفعل والمقال، بل يقول المتقون الأبرار:

عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه

وعندما انتصر النبيﷺ وفتح مكة، أحضر زعماء قريش، وقال لهم : "ما تظنون أني فاعلٌ بكم؟"، قالوا : أخٌ كريم، وابن أخ كريم.[31]

فقال الشجاع الفاضل المنتصر : "أقول لكم ما قاله يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم. اذهبوا فأنتم الطلقاء"[32].

إنّ الحروب اليوم تتجدَد، ويتكرّر اشتعال نيرانها، بسبب معاملة الغالب للمغلوب، حيثُ يفرض عليه المغارم الحربية الكبيرة، وينزل به الذُّل والأذى، والمغلوب يتحفّز حتى يقوي ويشتد، فينفض عن نفسه غُبار الذلّ، وينقضّ على عدوّه انقضاض الوحش علي فريسته، وبذلك لا تنتهي حرب إلاّ وفي ثنايا الانتهاء أسبابٌ لحرب أخرى أشدّ فتكًا.

٣٢- ولقد قامت العلاقات الإنسانية على العدالة إذا كان نزاع، وذلك هو المبدأ الخامس الذي يقرره الإسلام لحماية الإنسانية من أن تفتك بها الحروب وتأكل خيراتها، وإن العدالة هي الميزان المستقيم الذي توزن به العلاقات الإنسانية من حيث سلامتها وأداؤها إلى السلم، فإنه لا سلم مع الظلم، والحرب خير من سلم ظاهرة يأكل فيها الظالم المظلوم والغالب المغلوب. وإذا كان لكلّ دينٍ سمة وعلامة، فسمة الإسلام وعلامته العدالة. والعدالة مطلوبة للعدوّ والوليّ على سواء، فليس بعدل من يعدل مع وليه ويظلم عدوه، ولذلك قال تعالى:

"ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا إعدِل أهو أقرب للتقوى"[33].

٣٣- وليس التسامح مع الظالم من شأن الإسلام، بل الاقتصاص من الظالم الراتع في غيّه هو عدالة الإسلام. وإذا كان قد جاء في كتب بعض الديانات القائمة الآن: "من ضربك على خدّك الأيمن فأدر له الأيسر"، فالإسلام يقول : "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم".

وقال تعالى : "وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين"[35].

والصّبر لا يكون على الضّيم والذّل، ومع الظالم الراتع في فساده؛ بل يكون عندما يرجى أن يرعوى من تلقاء نفسه، أو يكون الظّلم هفوة وقعت من غير إصرار ولا استكبار.

٣٤- والظلم الدولي دائمًا يكون من التعصب الإقليمي أو الجنسي، ولقد نهى النبيﷺ عن العصبيّة التي تؤدي إلى الظلم، فإنّ الظلم قبيح في ذاته، وما يؤدي إليه قبيح أيضًا، ولذا كرّر النبيﷺ النهي عن العصبية فقيل له: "أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟"، قال : لا، ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم".

إنّ التاريخ ليذكر قصة للمسلمين تعد مفخرة العادلين، فإنه يروى أن أهل "سمرقند" شكوا أن قتيبة بن مسلم عندما فتح بلادهم لم يُخيرَهم بين العهد أو الإسلام أو الحرب، فأرسلوا إلى عمر بن عبد العزيز بشكواهم، فأرسل قاضي المسلمين فحقق القضية وانتهى إلى صدقها، فأمر الجند أن يعودوا إلى ثكناتهم ويتركوا البلاد بعد أن فتحوها ففعلوا، ثمّ خيروا أهل البلاد فاختاروا الإسلام دينًا.

٣٥- المبدأ السادس الذي حمى به الإسلامُ السّلام: الوفاء بالعهد، وقد شدد الإسلام في الوفاء بالمعاهدات لأنها قوام السلام، ولا سلام إلا بمعاهدات عادلة بلا ظلم والوفاء بها، فإن كان الظلم والغدر فإنّها الحرب الضروس التي لا تبقي ولا تذر.

وقد قال تعالى :

"وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولاً"[٣٦].

وأخيرًا

فنحن أبناء الأمة العربية والإسلامية لنا أن نفخر بأمتنا فشعارها ودستورها الإسلام وشريعتها شريعة الحق، شريعة الله وكل خطواتها الإسلامية المضيئة وتاريخها الحافل بعلمائها الأفاضل يعيش أفرادها مسلمين وغير مسلمين في نسج واحد بعيدًا عن التزمت أو الإسفاف أو التطرف الأعمى الذي يؤدي لا محال إلى الخروج على الدين وقيمه العليا ومبادئه الإنسانية الرفيعة.

إن الإسلام ودولته سماحة وحب وعدل ومساواة لا يعرف القهر أو الظلم إنما هو سلام في اسمه سلام ساعة نزوله .. سلام في سلام في سلام.

الهوامش والمصادر

١- علي بدوى ، مبادئ القانون الروماني، ج١، ط٢، ١٩٣٦، دار العلم ، تونس ص٨٠.
٢- المنجد في اللغة والأعلام ، دار المشرق، بيروت، ص٣٤٧.
٣- لسان العرب ، دار المعارف ص١٨١.
٤- أحمد زكي بدوي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٧، ص٣٠٨.
٥- تفسير القرطبي ، الجزء الأول ، تفسير سورة البقرة ص١٥٢ ، دار الغد العربي.
٦- ابن كثير ، دار المعرفة ، تفسير سورة الحجرات ج٣ ص٦٥.
٧- تفسير القرطبي ، تفسير سورة النساء.
٨- محمد بهي الدين سالم ، الإسلام دين ودولة ، دار التحرير للطباعة والنشر القاهرة ١٩٩٥ ، ص١٢٧.
٩- المرجع السابق ، ص٣٥ - ٣٦.
١٠- ابن كثير ، تفسير سورة النساء .
١١- السيد سابق ، فقه السنة ، ص٦.
١٢- عبد العزيز كامل ، الإسلام والتفرقة العنصرية ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٠ ، ص٢٧.
١٣- عبد العزيز كامل ، مرجعه السابق ص٣٣.
١٤- ابن عبد البر ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، دار نهضة مصر ، القاهرة ص٦.
١٥- عبد العزيز كامل ، مرجعه السابق ص٣٤.
١٦- ابن القيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة تحقيق صبحي الصالح وتقديم محمد حمد الله، ج١، ط١، ١٩٦١ ص٨٤.
١٧- ماجد أحمد المؤمن ، الإسلام دعا إلى التراحم بين الناس ، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٣٩١، ص٨١ - ٨٢.
١٨- تفسير ابن كثير ج ٢ ص٣.
١٩- جاد الحق علي جاد الحق ، مثل من طرائق الدعوة ، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية.
٢٠- السيد سابق مرجعه السابق ج٣ ص٣٤.
٢١- عبد الفتاح محمد العيسوي، حقوق الإنسان في الإسلام ، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٤٣١، أكتوبر ٢٠٠١، ص٤٠.
٢٢- تفسير القرطبي ج٦، ص١٤٦.
٢٣- عبد الفتاح العيسوي ، مرجعه السابق ص٤١.
٢٤- أسامة الألفي ، حقوق الإنسان وواجباته ، في الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠ ص٣٠.

٢٥- تفسير القرطبي ج٧ ، ص٢٢٦.
٢٦- سورة البقرة آية ٢١١.
٢٧- الموادعة : المصالحة والمهادنة.
٢٨- الحائجة : المصيبة وسنة الجدب.
٢٩- متفق عليه.
٣٠- سورة الإنسان آية ٨.
٣١- رواه مسلم.
٣٢- سورة يوسف آية ٩٢.
٣٣- سورة المائدة آية ٩.
٣٤- سورة البقرة آية ١٩٣.
٣٥- سورة النحل آية ١٢٦.
٣٦- سورة الإسراء آية ٣٤.

الفصل الثالث

فلسفة الحرب والسلم فى الإسلام

-الحرب ضرورة اجتماعية

-نظرة اليهودية والمسيحية فى الحرب

-دعوة الإسلام إلى السلم

-الأحوال التى أقر بها الإسلام القتال والغاية منها

-القتال للدفاع عن النفس

-القتال فى سبيل الله

-مقارنة بين الإسلام والقانون الدولى فى الحرب

-الاستعداد للحرب

-وصايا عامة أثناء الحرب

-الروح المعنوية أثناء القتال

-الجزية

-المستأمنون

-العهود فى الإسلام

-آداب الحرب والسلم فى الإسلام

- الحرب هي النزاع المسلح القائم بين دولتين فأكثر تقدم عليه إحداهـا برضاها وتجبر غيرها عليه، وهـي ذريعة تتوسل بها الدول لتحقيق مآرب سياسية أو اقتصادية أو إقليمية.

الحرب ضرورة اجتماعية

مما لا شك فيه أيضًا، أن الحرب ضرورة اجتماعية تلجأ إليـها الجماعـات البشرية لحل بعـض المشـاكل الاجتماعيـة التـي تسـتعصي علـى الحلـول السـلمية فالجماعات البشرية اندفعت في التناحر لا لمجرد استيفائها أغراضها الماديـة فحسـب ولكن لحاجتها الأدبية أيضًا فلولا الحروب التي ثـارت بين الجماعـات لتعطل تقدمها في طريق العمران والمدنية.

وقد ذهب "هيجـل"[1] أحـد رواد الاشتراكية بأن التغيير لا يحـدث فـي أي ميدان إلا لنتيجة تصارع قوى متضادة متشابكة تقضي كل منها على الأخرى بحيث تخرج نتاجًا يفوقها، هـذه الفلسفة تبناها فيما بعـد "ماركس[2] وانجلز" ومما يسجل للقرآن أنه سبق أن قرر هذه الحقيقة منذ أربعة عشر قرنًا حين أعلن قائلاً. 'ولـولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين'"[3].

فالإسلام أقر الحـرب علـى إنـها وسيلة لحـل بعض المشـاكل الاجتماعية في وقت كانت القوة الغاشمة هي العائق الوحيد الذي يقف أمام دعوة الحق.

والدول الغربية نراها، بعد أن نالت ما نالته قوة وتقنيـة عاليـة في التسليح، لا تزال تعمـد فـي القرن الواحـد والعشرين لحـل مشـاكلها المختلفة إلى الحـرب، فـهل يعقل أن يحـرم الإسـلام الحـرب قبـل أربعـة قرنًـا؟ وقصـد إلى إحـداث تطـور عـام مـن الناحيتين الدينيـة والاجتماعيـة وهـذا ممـا يدحـض رأى الطـاعنين في الإسـلام بأنـه دين حربي وأنه لم ينتشر إلا بحد السيف هـذا الطعـن الـذى اتخـذه أعـداء الإسـلام وسيلة لتشويهه من ذلك ما قاله "ماكدونالد" فى "دائرة المعارف الإسـلامية" (إن نشـر الإسلام بحد السيف والقوة هو الواجب الديني علـى كـل مسلم). هـذا وسـوف يـرى القارئ الكريم الرد على هذا الافتراء والتضليل من كافة الجوانب.

نظرة اليهودية والمسيحية في الحرب

وإذا نظرنـا إلى الديانـات القديمـة وجدنـا أن اليهوديـة فرضـت علـى أهلـها الحـرب حفظًا لوجودهـم وللتمكـن فـى الأرض وفلسفتها قائمـة علـى القتـل والإبـادة الجماعية لسكان البلاد التي يغزوها . حيث جاء فى الكتاب الخامس مـن الزبـور "إذا أدخلك ربك فى أرض لتملكها وقد أباد أممًا كثيرة مـن قبلـك فقاتلـهم حتـى تفنيهم عـن أخرهـم ولا تعطيهم عـهدًا ولا تـأخذك عليـهم شـفقة أبـدًا" ثـم جـاءت المسيحية بتحريم الحرب بتاتًا لقول السـيد المسيح فـى انجيـل متـى : "أمـا أنـا فـأقول لكـم : لا

تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الأخر" ويستند كذلك أنصار الرأى القائل بتحريم الحرب تحريمًا مطلقًا إلى قول السيد المسيح عليه السلام للقديس بطرس "أعد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون" وعلى هذا تكون المسيحية قد حرمت الحرب. ولقد بذل رجال من المسيحيين حياتهم في سبيل التوفيق بين نص الانجيل وضرورات الدولة ، فخرجوا بالتفريق بين الحرب المباحة والحرب الممنوعة وأثاروا البحث فى ماهية الحرب العادلة فحددوها بأن يعلنها الأمير وأن تكون عادلة واشترطوا فيمن يعلنها أن يكون سليم النية صادقًا بلا طمع ولا وحشية ولقد اضطرت المسيحية فى القرن الرابع الميلادى أى بعد أن أصبح لها دولة تحت قيادة الامبراطور "قسطنطين"[٤] الرومانى أن تستأصل الوثنية من المملكة الرومانية بالحديد والنار.

فهل يريد الطاعنون فى الإسلام أن يحرم الحرب مع أن الديانات قبلة لجأت إلى الحرب بعد أن جربت كل الوسائل ولكن دون جدوى؟

وهل يريدون أن يحرمها على أتباعه. ثم متى اضطرتهم الحياة لجأوا إليها غير مبالين؟

دعوة الإسلام إلى السلم

وضع علماء القانون الدولى قواعد لواجبات كل دولة نحو غيرها من الدول فى حال السلم والحرب وأول ما قرره العلماء من القواعد : أن تكون علاقات الدولة مع غيرها أساسها السلم حتى يتيسر لها تبادل المنافع والتعاون على بلوغ النوع الإنسانى درجة كماله، وقرروا: أنه لا يسوغ قطع هذه الصلة السليمة إلا عند الضرورة القصوى التى تلجئ إلى الحرب وبعد أن تفشل جميع الوسائل السلمية فى حسم الخلاف وهذا ما سعى إليه الإسلام فإنه أسس علاقات المسلمين بغيرهم على المسالمة والأمان فهو لا يجيز قتل النفس لمجرد أنها تدين بغير الإسلام ولا يبيح للمسلمين قتال مخالفيهم فى الدين لمخالفتهم فى عقيدتهم بل يأمر أتباعه معاملة مخالفيهم بالحسنى ومبادلتهم المنافع وهذا واضح فى قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسوا إليهم إن الله يحب المقسطين"[٥] ويقول تعالى "فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا"[٦].

والإسلام حريص على السلم أشد الحرص، يتبين لنا ذلك من قوله تعالى "يا أيها الذين أمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين"[٧] والمعنى يا أيها الذين أمنوا إن إيمانكم يوجب عليكم أن تدخلوا فى السلام

العام فلا تعتدوا على أحد لم يعتد عليكم ولم يقاتلكم ومن الآيات أيضًا التى تحض على السلم قوله تعالى "وإن جنحوا للسلم فأجنح لها"[٨].

والمعنى : وإذا كنت فى حرب مع أعدائك أيها الرسولﷺ ومالوا عن جانب الحرب إلى السلم والمصالحة فأجبهم إلى ذلك واقبل منهم. أى إذا مال العدو إلى السلم والمسالمة وعلينا أن نستجيب.

وهذه الآية تفتح باب السلام على مصراعيه، وتتلاءم والنزعة العصرية فى وضع أصول مقررة لإبطال الحرب. ومما يجب لفت النظر إليه أن الإسلام حريص على السلام بم لم يحرص عليه مذهب اجتماعى قبله، فقد جعل السلام تحية الإسلام يتبادلها المسلمون في اليوم ملايين المرات بقولهم : "السلام عليكم" كما أنه أوجب ذكرها فى نهاية كل صلاة فالمصلى يختم بالتوجه إلى إخوانه المصلين قائلا "السلام عليكم ورحمة الله"

الأحوال التى أقر بها الإسلام القتال والغاية منها.

* القتال للدفاع عن النفس

مكث النبي بضع عشرة سنة يبشر بالدعوة من غير قتال صابرًا على شدة إيذاء العرب بمكة واليهود بالمدينة المنورة، فكان يأتيه أصحابه ما بين مضروب ومجروح يشكون إليه حالهم ويطلبون منه السماح لرد العدوان بالمثل فيقول لهم النبيﷺ "اصبروا لأنى لم أؤمر بالقتال حتى أن بعض أصحابه قتل من جراء العذاب، منهم : سمية أم عمار بن ياسر التي عذبها آل المغيرة مع زوجها على إسلامهما ليرجعا عنه فلم يرجعا وماتت أم عمار بسبب ما تلقته من ألوان العذاب والهوان. ثم تطورت بعد ذلك الأحداث وتفنن المشركون فى إيذاء المسلمين حتى أجمعوا أمرهم على قتل النبيﷺ فلما علم بقصدهم هاجر إلى المدينة حيث استقبله أهلها بالترحاب وبايعوه على الإسلام.

ولم يكتف الكفار بمحاولتهم قتل النبيﷺ بل حرضوا عليه القبائل الجاهلية لإبطال دعوته والقضاء عليها، لذا أذن الله للنبي بالقتال حماية للدعوة الإسلامية وإذا أمعنا النظر فى النصوص القرآنية التى أمر الله فيها المسلمين بالقتال رأيناها تذكر أن الحرب وسيلة لدفع العدوان وأن طبيعة البشر كثيرا ما تفضى إلى التنازع والبغي والاعتداء على الحريات قال تعالى "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا رفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز"[٩].

تناولت هذه الآية الإذن بالقتال وعللت هذا الإذن بما منى به المسلمون من الظلم والاعتداء وما أكرهوا عليه من الخروج من الديار والأوطان بغير حق، ثم ذكر الله أنه لولا ما شرعه للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء في كل عصر لهدمت في شريعة كل نبي معابد أمته، فهدمت صوامع الرهبان وبيع النصارى أى كنائس النصارى وصلوات اليهود أى كنائس اليهود ومساجد المسلمين التى يذكرون فيها اسم الله كثيرًا ثم بين القرآن عقب الآيات التى ذكرناها واجب المؤمنين المنتصرين[١٠].

"الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور"[١١].

فليست الغاية من النصر توسعًا فى الملك كما تفعل الدول المستعمرة ولا وضع اليد على موارد الثروات ولا علوًا واستكبارًا فى الأرض لكى يكون جنس أعلى من جنس ولكن المؤمنين إن انتصروا : أقاموا الصلاة، أى أنهم توجهوا إلى السمو الروحى من عبادة الله وتطهير أنفسهم.

وآتوا الزكاة أى أنهم حققوا العدالة[١٢] الاجتماعية من إعطاء المحتاجين حقهم فى هذه الحياة. أمروا بالمعروف أى أشاعوا الخير والحق بين الناس ونهوا عن المنكر، أى حاربوا الشر والفساد واستأصلوهما من المجتمع.

والنبي قاتل لرد العدوان وقد كان مأمورًا به من الله

قال تعالى :

"وقاتلو فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"[١٣].

تأمر هذه الآيات أن يقاتل المسلمين في سبيل الله الذين يقاتلونهم وتأمرهم بتتبعهم حيثما وجدوا وتشتيتهم كما فعلوا هم من قبل وتنهاهم عن الاعتداء وتؤكد هذا النهى بعدم محبة الله للمعتدين ثم ترشد إلى أن ما حصل من إخراج المسلمين من ديارهم وترويعهم فى أمنهم وإيذائهم ليحرموهم من دينهم هو فتنة أشد قبحًا من القتل إذ لا بلاء على الإنسان أشد من إيدائه واضطهاده وتعذيبه على اعتقاده الذي تمكن من عقله، وقلبه ووجدانه فيجب مقاتلة الذين يثرون الفتنة.

ثم تمنع هذه الآيات المسلمين القتال فى الأماكن المقدسة، فإن انتهك العدو حرمتها صرح لهم أن يردوا العدوان. ثم تختم هذه الآيات ببيان الغاية التي

تنتهي بها الحرب وهي ألا تكون فتنة في الدين وأن يكون الدين لله ليحصل الناس على حرية العقيدة دون اضطهاد.

*** القتال في سبيل الله**

الأمة الإسلامية مكلفة بتحقيق العدالة في الأرض وهذا التكليف يوجب على المسلمين أن يكافحوا الظلم والبغي حيث كان ويزيلوا أسبابه لا ليملكوا الأرض أو الثروات بل من أجل الجهاد في سبيل الله أو القتال في سبيل الله، جاء في القرآن "وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم"(١٤). "وجاهدوا فى الله حق جهاده"(١٥).

وسبيل الله هو سبيل الحق، فكل قتال لأجل الدين والدفاع عنه هو فى سبيل الله، وكل قتال لدفع الظلم ومعاونة المظلومين ضد الظالمين ونصرة الحق هو من القتال فى سبيل الله وكل طريق للوصول إلى الحق أو حمايته أو الدفاع عنه هو فى سبيل الله تعالى . والقرآن يدعو فى كثير من الآيات للقتال فى سبيل الله خالصًا من أى غرض دنيوى. قال تعالى :

"فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا. ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيرًا"(١٦).

ففى هاتين الآيتين إشارة لطيفة إلى أن الحرب في الإسلام ليست للتحكم في الرقاب ولإذلال العباد، بل هي في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من المؤمنين أمثال الساكنين في مكة الذين استذلهم كفارها وأذوهم ليمنعوهم من الهجرة وليفتنوهم عن دينهم هؤلاء المستضعفين الذين فقدوا النصير واستغاثوا بالله فعليكم أيها المؤمنون أن تنصروهم وترفعوا عنهم الظلم والعدوان.

ثم قال تعالى بعد ذلك عقب الآيتين اللتين ذكرناهما "الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفًا"(١٧).

والطغيان في اللغة هو مجاوزة الحد وكل شئ جاوز المقدار والحد فى العصيان فهو طاغ، وكذلك إذا تجاوز الإنسان الحد وعلا فى الأرض وراح يفسد فيها ويستعبد الناس ويسلبهم حقوقهم ويحرمهم ثمرات الأرض وخيراتها فذلك هو "القتال فى سبيل الطاغوت" الذي ندد به الله وجعله شعار الكفار، أما القتال في سبيل الله فهو الذي غايته أن يرفرف القانون الإلهي العادل على العالمين، دون أن يكون هناك

غاية شخصية أو علو في الأرض كما أمر به تعالى "تلك الدار الأخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا، والعاقبة للمتقين"[١٨].

فالإسلام فى جهاد دائم لا ينقطع أبدًا لتحقيق كلمة الله في الأرض، أي لتحقيق النظام الصالح الذي يسعد البشرية والأمة الإسلامية منتدبة لرفع الظلم عن الأفراد والجماعات فى أقطار الأرض كافة بصرف النظر عن ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، قال الله تعالى مخاطبًا المسلمين "وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا"[١٩].

أي لتكونوا أيها المسلمون شهداء على الناس في تقصيرهم وعلوهم فتقوموا بإصلاح عوجهم.

وليس في هذا الأمر إظهار فضل أمة على أخرى أو جرح كبرياء أمة من الأمم أو شعب من الشعوب لأن الله الذي وضع هذا الانتداب لم يجعله ميزه لشعب من الشعوب ولا وقفا على جنس من الأجناس ولكنه جعله للجماعة التي تدين بأصوله مهما كان لون هذه الجماعة أو جنسيتها، ونصوص القرآن واضحة في أن الإسلام دين عام للناس كافة.

قال الله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًاﷺ (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا)[٢٠].

ولهذا نرى النبي ﷺ أرسل سفراءه إلى ثمانية ملوك وأمراء مجاورين لجريرة العرب يحملون كتبًا منه يدعوهم فيها إلى الإسلام فرفض هؤلاء الحكام دعوته فمهم من قتل سفيره ومنهم من مزق تلك الكتب مع تهديد الرسول ﷺ الذي يحملها، فكان لزاما على المسلمين أن يحاربوا هؤلاء بعد أن تبين أنهم قتلوا الدعاة وفتنوا أتباعهم وساسوهم بسياسة الظلم "ولما أخذ العرب أهبتهم لمقاتلة فارس والروم كانتا تتقاسمان أكثر بقاع العالم المعروفة يومئذ ولكنهما مضمحلتان اضمحلالاً سياسيًا واجتماعيًا فقد أنهكتهما الحروب المتتابعة ولم يخرجا منها وفيهما بقية وكانت سيرة الدولتين سيرة ظلم وجبروت وكان أهلهما يعتقدون عقائد مشوهة فانقلبت الزرادشتية[٢١] دين فارس الموروث إلى مجوسية سحرية قائمة على أساس الجور والبغي مكروهة منبوذة في السر وغشيت النصرانية في الشرق ببهارج الوثنية وفسدت بالمناظرات الجدلية التي ورثتها عن متأخري اليونان فافترقت المجوسية والنصرانية كلتاهما إلى فرق كبرى تتوارث العداوة والبغضاء ويعذب بعضها بأيدي بعض كل ذلك مما أفاد الفاتحين القادمين، فلم يلق الإسلام من مكان ما مقاومة شعبية ولم يكن يعبأ أهل العراق إذا بذلوا الخراج إلى بيزنطة أو إلى المدائن أو

المدينة وإذا خيروا بين العرب والفرس فلا جرم أن الأولين كانوا أبر وأتقى وأعدل وأرحم"[٢٢].

*** مقارنة بين الإسلام والقانون الدولي في الحرب**

أباح الإسلام الحرب، ولكنه أحاطها بسياج من الرحمة لم تبلغها مدنية القرن الواحد والعشرين ولا إلى ما يقرب منها فقد سن أحكام وأوجب مراعاتها لتخفيف ويلات القتال وهي خير ما عرف من قوانين الرحمة بالإنسان وهذه الأحكام[٢٣] نراها تتفق مع أحكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها إيمان المسلمين وإما أحكام القانون الدولي فإنها ليس لها قوة تنفيذية تكفل إمضاءها حتى أن بعض الباحثين يرى أن تسمية الأحكام الدولية قانونا ضرب من التسامح لأن القانون[٢٤] لا يكسب هذا الوصف إلا إذا كان من ورائه قوة لحمايته فالأحكام الإسلامية الحربية مع أنها ترمي إلى العدل والرحمة لها من إيمان المسلمين قوة تنفيذية تكفل إمضاءها. وتسهل تنفيذها لأنها إنسانية وعالمية. وعلى هذا الأساس شرعت الأحكام الحربية في الإسلام كما يأتي.

١- قرر القانون الدولي : أن الدولة التى تضطر إلى إعلان الحرب على دولة أخرى يجب عليها قبل البدء أن تعلن الدولة الأخرى بميعاد الحرب وتخطر الأخرى لتلزم حيادها والغرض من هذا الإعلان توقى الغدر والخيانة والأخذ على غرة.

وجاء فى الشرع الإسلامي : أنه يجب على المسلمين قبل البدء بقتل الكافرين أن يبلغوهم دعوة الإسلام. فقد ثبت أن النبي ما قاتل قومًا حتى دعاهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم وبهذا كان يأمر قواده. ففي صحيح مسلم أن الرسولﷺ قال لبعض قواده : "إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم "الإسلام أو الجزية أو القتال"[٢٥] والجزية هي ضريبة مالية خفيفة تخول لمن يدفعها الدخول في سلطان المسلمين والخضوع لحكمهم وسنفصلها فيما بعد :

٢- قرر القانون الدولي : أن الرعايا غير المنتظمين فيَ الجيش لا يعدن محاربين ولا يجوز إلحاق الأذى بهم وأن وصف المحاربين خاص بكل جندي أو محارب. والشريعة الإسلامية قررت ذلك فقد جاء في القرآن الكريم : "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا"[٢٦]. ومن الاعتداء أن يحاربوا من لا يحاربهم كأبناء أعدائهم ونسائهم ومرضاهم وشيوخهم ورجال دينهم إلخ ..روى رباح بن ربيعة : أنه خرج مع رسول الله فى غزوة غزاها فمر رسول اللهﷺ وأصحابه على امرأة مقتولة فوقف أمامها ثم قال "ما كانت هذه لتقاتل ثم نظر فى وجوه

أصحابه وقال لأحدهم : إلحق بخالد بن الوليد فلا يقتلن ذرية ولا عسيفًا ولا امرأة"[٢٧].

وأوصى الرسولﷺ جيشه في غزوة مؤتة وهو يتأهب للرحيل "لا تقتلن امرأة ولا صغير ضرعًا ولا كبيرًا فانيًا ولا تحرقن نخلاً ولا تقلعن شجرًا ولا تهدموا بيتًا".

٣- منع القانون الدولي الإجهاز على الجرحى وتعذيب العدو والفتك به غيلة واستعمال القنابل والقذائف والأسلحة التي تزيد في التعذيب وحرم تسميم الآبار والأنهار والأطعمة كما أنه أوصى أن تحترم جثث القتلى ومنع التمثيل بها مهما كانت جنسية أصحابها.

والإسلام حرم هذا أيضًا فقد كان النبيﷺ إذ عين أميرًا على جيش أو على سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا ثم قال "أغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا"[٢٨] حتى أن الأعداء إذا مثلوا بالمسلمين فالأفضل عدم مجارتهم في هذا التمثيل ويشير إلى ذلك القرآن الكريم قال تعالى :

"وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله"[٢٩].

وأوصى أبو بكر - أول خليفة للمسلمين - قائده أسامة بقوله : لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاه ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكله.

٤- قرر القانون الدولي قواعد في حسن معاملة الأسرى وعدم مسهم بأذى : فلا يجوز قتلهم ولا جرحهم ولا إساءة معاملتهم أو تحقيرهم إذا سلموا أنفسهم أو صودرت حريتهم.

والشريعة الإسلامية الغراء حثت على تكريم الأسرى عامة وجعلت ذلك من البر الذي هو علامة الإيمان[٣٠] فقط أثنى الله على المؤمنين الذين يحسنون إلى الأسرى بقوله. "ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورًا"[٣١].

كما خير الإسلام الإمام بين إطلاق سراح الأسرى دون مقابل أو فدائهم بالمال حسب ما تقتضيه المصلحة قال تعالى "فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء"[٣٢].

وقد من النبي ﷺ على الأسرى أي أطلق سراحهم بدون مقابل وفادى بالمال وطلب منهم أن يعلموا أبناء المسلمين القراءة والكتابة.

* **الاستعداد للحرب**

ومن مزايا الشريعة الإسلامية أنها شريعة عملية تواجه الحقائق البشرية بالحل العملي، فما دامت الموعظة الحسنة لا ترد الظلم والاعتداء وما دام أعداء الإسلام لا يرضون حسن الجوار والعهد القائم على الإنصاف وحرية العقيدة[٣٣] فإن الحرب واقعة بين الناس، ولهذا أمر الإسلام بالاستعداد وأخذ الأهبة لها: قال الله تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"[٣٤].

أمر الله المسلمين في هذه الأية بأن يستعدوا لأعدائهم بكل ما يستطيعون من قوة وهو أمر لا يختص بزمان ولا بفرق من الناس ولفظ القوة عام يشمل كل ما يتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للحرب من الحصون وأسلحة البر والبحر والجو على اختلاف أنواعها وأشكالها بحسب الأزمنة والأمكنة المختلفة ومصانع الذخيرة وكل ما يفيد في صلاحية الأمة للحرب : كإنشاء معاهد لتعليم فنون الحرب وغير ذلك ما يجعل الأمة قوية مرهوبة الجانب. وقوله تعالى "ومن رباط الخيل" يعني اقتناءها وإعدادها وقد أمر الله بإعداد رباط الخيل لأنها كانت مركب الحرب في زمن الرسول فإذا تغير الزمان وصار مركب الحرب سفنا حربية وطائرات وسيارات مصفحة ودبابات ومضرعات وجب على المسلمين أن يعدوا ذلك والقصد من إعداد هذه القوى إرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الأمة الإسلامية ومصالحها. ولأجل أن تكون آمنة في عقر دارها.

وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلح وقد أوجبه الإسلام قبل أن يعرفه أهل أوروبا بزمن طويل وهذا معنى قوله تعالى : "ترهبون به عدو الله وعدوكم".

ثم حض الإسلام المؤمنين على إنفاق المال في سبيل الله لإعداد القوى العسكرية التي أمر بها إذ لا يتم بدون المال شئ منها فقال تعالى "وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون" فقد وعد الله المؤمنين بأن ما ينفقونه في سبيل الله قل أو كثر يجزون عليه جزاء وافيا. والقرآن الكريم قد أشار إلى أن عدم إنفاق المال في سبيل الله يؤدي إلى التهلكة.

قال تعالى : "وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة"[٣٥].

* **وصايا عامة أثناء الحرب**

وعند اندلاع الحرب تتجلى لنا ناحية رائعة في تعاليم الإسلام التي يفرضها على أتباعه والتي هي عماد النصر للشعوب الآخذة به قال الله تعالى "يا أيها الذين

أمنوا وإذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين"[٣٦].

اشتملت هاتان الآيتان على خمس وصايا هي :

أولاً - الثبات عند لقاء العدو وعدم الفرار من المعركة والنظام الحربي المعاصر يقضي بقتل الجندي الفار من القتال حال فراره وذلك خشية أن تنتقل عدوى فراره إلى غيره فتحدث البلبلة والجزع في صفوف المقاتلين فيكون داعيا لهم على الهزيمة .

ثانيًا - ذكر الله في الحرب. لما له من تأثير فعال في النصر لأن الإيمان يمد المحارب بقوة معنوية هائلة تسند القوة المادية فتدعمها ويكون لها الحكم الفصل في المعركة ولا شك إن الحالة النفسية لها أكثر الأثر على سلوك الإنسان.

ثالثًا - الطاعة ، طاعة الله أولاً وذلك باتباع ما أمر به من الوصايا التي تنهض بحال المسلمين وعدم معصيته وطاعة الرسول فيما أمر به من شؤون القتال، فقد كان الرسول هو قائدهم في أغلب المعارك التي خاضوها ضد الكفار وبعد وفاته أوجب عليهم طاعة قوادهم في القتال : "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" فطاعة القائد العام هي عماد النظام الذي هو ركن من أركان النصر.

رابعًا - عدم التنازع، فالنزع فى حال الحرب يؤدي للفشل وتغلب الأعداء على الفئة المتنازعة أو المختلفة فيما بينها في الرأى.

خامسًا - الصبر على الشدة، وما يلاقون من بأس العدو وكثرة عدده أو قوته أو آلته الحربية. فإن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد، والصبر في الحرب من أعظم أسباب النصر.

* الروح المعنوية أثناء القتال :

وسلاح المسلمين في الحرب نوعان : مادي ومعنوي، فالسلاح المعنوي ما وقر في القلب وثبت في الصدر : ألا وهو الإيمان الكامل بالله وأنهم يقاتلون في سبيله وهذا العتاد المعنوي يعتمد على أمور منها.

أن الله مع المؤمنين في حربهم يمدهم بالملائكة وأنه سبحانه يقذف في قلوب أعدائهم الرعب فيما يطيقون حربًا قال تعالى "إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين أمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب"[٣٧]. فما ظنك بهذا الجيش الذي يثق أن الله معه يمده بالملائكة ثم يؤمن أن الفئة القليلة التي تقاتل في سبيل الله تغلب الفئة الكبيرة من أعدائها قال تعالى : "إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا"[٣٨]

فهؤلاء العشرون الذين يغلبون مائتين والمائة الذين يغلبوا ألفًا هم الفئة القليلة التي تغلب الفئة الكبيرة في العدد ولأنها تمتاز بسلاح روحي يغطي ضعفها من حيث الكمية ويجعلها تتفوق على خصمها الذي يفوقها عددًا.

هذا والشهيد سوف يحيا عند ربه ويرزق قال تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون)[٣٩] زد على إنهم سوف يدخلون الجنة ولما كان القتال غير محبب إلى النفوس فقد بين الله أنه وسيلة إلى أمر محبوب وأنه يخفي وراءه خيرًا كثيرًا كإعلان كلمة الإسلام ورفع الظلم، قال الله تعالى "كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنت لا تعلمون"[٤٠].

* الجزية :

قبل أن تعلن الدولة الإسلامية الحرب على دولة أخرى تخيرها بين الإسلام والجزية والحرب والقصد من الجزية هو أن تكون هذه الدولة تحت حماية المسلمين ليأمنوا شرها ولإفساد المجال لحرية الدعوة الإسلامية بأن تصل إلى جميع طبقات الشعب بدون إكراه وليكون الدعاة المسلمون من مأمن من الاعتداء عليهم.

فالجزية ضريبة شخصية يفرضها الإسلام على غير المسلمين من رعايا الدولة الإسلامية وهي من غير المسلمين قائمة مقام الزكاة[٤١] التي تؤخذ من المسلمين وذلك أن كل فرد من رعايا الدولة قادر على أن يؤدي قسطًا مما يصرف في المصالح العامة يجب أن يفرض عليه هذا النصيب ليكون له في مقابل هذا الواجب التمتع بحقوق الدولة التي هو من رعاياها ولهذا فإن من يعتنق الإسلام تسقط عنه الجزية ويطالب بالزكاة.

والإسلام لا ينسى واجب المروءة والرحمة فهو لا يجيز أن توضع الجزية على الضعفاء والمساكين. ففي كتاب خالد بن الوليد لأهل الحيرة يقول فيه "وايما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت ومال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام" يقول أبو يوسف في كتابه "الخراج" : "لا تجوز الجزية على النساء والصبيان ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذي يتصدق ولا من أعمى لا حرفة له ولا عمل ولا من ذمي يتصدق عليه ولا من مقعد والمقعد والزمن إذا كان لهما يسار أخذ منهما وكذلك الأعمى وكذلك المترهبون الذين في الأديرة إذا كان لهم يسار أخذ منهم وإن كانوا مساكين يتصدق عليهم أهل اليسار لم يؤخذ منهم" وفي تعيين قدرها يقول الإمام أبو حنيفة : أن الجزية على الفقير اثنا عشر درهما وعلى المتوسط أربعة وعشرون درهما وعلى الغني ثمانية وأربعون درهما.

ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم، ومنحهم حريتهم في دينهم ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين ويسمون "أهل الذمة" لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله وهذا ما سار عليه أمراء المسلمين من معاملة أهل الذمة. أنظر إلى هذا العهد الذي عاهد فيه خالد بن الوليد أهل دمشق "هذا ما أعطي خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها أعطاهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شئ من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة الرسولﷺ وذمة الخلفاء والمؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذ ما أعطوا الجزية"(٤٢).

وليس أدل على قيمة الجزية الزهيدة مما شهد به العلامة "دربير" فى كتابه "المنازعة بين العلم والدين" الذي يقول فيه "إن المسلمين ما كانوا يتقاضون من مقهوريهم إلا شيئا ضئيلاً من المال لا يقارن بما كانت تتقاضاه منهم حكوماتهم الوطنية" ويقول المشرع "مونتسكيو" في كتابه "روح الشرائع" عند إلمامه بالإتاوات الحكومية "إن هذه الإتاوات المفروضة كانت سببًا لهذه السهولة الغريبة التي صادفها المسلمون في فتوحاتهم فالشعوب رأت - بدل أن تخضع لسلسلة لا تنتهي من المغارم التي تخيلها حرص الأباطرة - أن تخضع لأداء جزية خفيفة يمكن دفعها بسهولة وتسلمها بسهولة كذلك" نقلاً عن محمود شلتوت(٤٣).

* المستأمنون

ومن نظم الإسلام الدالة على السماحة في أثناء الحرب : أنه يبيح لأفراد وجماعات من الدول المحاربة أن تتصل بالمسلمين وتدخل ديارهم وتقيم فيها فى حماية قانون يعرف في التشريع الإسلامي باسم الآيمان والإسلام ويقرر عصمة المستأمنين ويوجب على المسلمين حمايتهم في أنفسهم وأموالهم ماداموا في ديار الأسام بل يذهب أبعد من ذلك فنراه يمنحهم أنواعًا من الامتيازات ويعفيهم من بعض ما ينفذه على المسلمين من أحكام.

والغاية من هذا الأمان الذي شرعه الإسلام وهو أن يهيئ فرصة للمستأمنين يمكنهم من فهم واستيعاب حقيقة الإسلام وإدراك أغراضه عن كثب ولقد كان للإسلام من ذلك وسيلة قوية لنشر دعوته . والأصل في هذا ما جاء في القرآن "وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه"(٤٤).

والمعنى وأن استأمنك أيها الرسول أحد من المشركين لكي يسمع كلام الله ويعلم منه حقيقة ما ندعو إليه أو ليلقاك مطلقا فيجب أن تجيره وتؤمنه لكي يسمع كلام الله فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع فإن اهتدى به وآمن عن علم واقتناع فذاك وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذي يأمن على نفسه وقد توسع الإسلام في

هذا الباب توسعًا عظيمًا فسمح للفرد أن يجير ويومن ويعطي عهدًا لفرد أو جماعة من الناس وأمانة وعهده محترمان ولا يجوز المساس بهما.

* العهود في الإسلام

وكانت المعاهدات ولا تزال أداة هامة لتسوية العلاقات وفض المشاكل والمنازعات بالطرق السليمة. كما أن المعاهدات تقوم على الثقة بين الطرفين فإذا فقدت هذه الثقة انهارت أهم دعائم السلام بين الأمم والشعوب بل والأفراد والجماعات.

والإسلام أحاط بالمعاهدات بكل صنوف الاحترام وهيأ لها الكثير من الضمانات مما جعل المسلمين يرتفعون بها فوق مصالحهم وشهواتهم وعواطفهم فليس لازمًا في تشريع الإسلام إنه إذا قضت الظروف بنزاع بينه وبين خصومه إن يخيرهم بين الإسلام والجزية والحرب وليست هذه الحالات الثلاث التي كانت تعرض على الأعداء آتية في عمل المسلمين على سبيل الحصر فإننا نجد اتفاقات وعهودا وحالات سلام كانت قائمة بين المسلمين ومن يجاورهم من الأمم بغير أن يشترط لذلك حالة من الحالات الثلاث. وإذا رجعنا للعهود المنوعة والمحالفات التي عقدها النبي رأينا فيها أمرًا واحدًا مطردًا هو : قصد نشر دعوة الإسلام والوصول بهذه الدعوة إلى الظهور والانتشار بالوسائل السلمية. ولهذا أوجب القرآن على المسلمين الوفاء بعهودهم في كثير من الآيات قال الله تعالى :

"وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا"[٤٥] . وجعل القرآن الخروج من فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الإنسانية كلها قال الله تعالى :

"إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون "[٤٦].

ولا يبغي الإسلام من وراء المعاهدات سيطرة ولا تملكا ولا استعمارًا ولا وسيلة لغش الشعوب وخداعها لأجل أن تكون أمة أقوى من أمة بل لأجل إقرار السلام. والقرآن أمر بالوفاء بالعهد ولو أدى ذلك بالمسلمين إلى عدم نجدة إخوانهم الذين يقيمون في بلد غير إسلامي معاهد لهم مع أن القرآن يعتبر المسلمين على اختلاف أجناسهم وبلادهم أمة واحدة وكل عدوان يقع على طائفة أو شعب من المسلمين فهو عدوان على الأمة الإسلامية قال الله تعالى :

"والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق"[٤٧].

أما إذا أخل المعاهدون بالمعاهدة كان المسلمون في حل من قتالهم .

قال تعالى "وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لعلهم ينتهون"(٤٨).

آداب الحرب والسلم في الإسلام

شاء الحق تبارك وتعالى أن يجعل الصراع بين الحق والباطل سنة جارية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فقد وردت في ثنايا مجموعة من النداءات الإلهية التي وجهها الحق سبحانه للمؤمنين ترشدهم وتحثهم على الصبر والثبات في مجاهدة الأعداء وتذكيرهم بأن هذه التكاليف الإلهية التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلوا به وأن عاقبة الإيمان والالتزام بالآداب والقيم الإسلامية هو النصر. ومن أبرز آداب الحرب في الإسلام ما يأتي :

١- التحذير من الفرار في المعارك :

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)(٤٩).

هنا يأمر الله عبادة المؤمنين أن يصمدوا أمام أعدائهم، وألا ينهزموا مهما كان جيش أعدائهم كبيراً فإن الغلبة ليست بالكثرة، والمؤمنون أولى بالثبات والشجاعة من الكافرين لأنهم يطلبون إحدى الحسنيين : إما العزة في الدنيا والنصر على الأعداء أو الشهادة في سبيل الله . وقد حذر الله سبحانه وتعالى من الفرار والهزيمة لأن فيه كسر للمسلمين والجيش وإلقاء الرعب في قلوب المجاهدين .

*وقد بين الله تعالى أن الفرار يجوز في حالتين اثنين :-

الأولى :

إذا كان بقصد خداع العدو والتغرير به لأن الحرب خدعة كما يقول رسول الله ﷺ "والعاقل من يعرف كيف يبطش بعدوه ويستدرجه".

والثانية :

إذا بقي هذا المجاهد المسلم وحيداً فريداً فانضم إلى جماعة أخرى ليتقوى بها أو أنها بحاجة إليه ليشد أزرهم ويقوى عزمهم. وماعدا ذلك الفرار من الحرب جريمة(٥٠) نهى الله عنها وتوعد أشد الوعيد لهم وأن مقرهم وبئس ذلك المقر والمصير.

*وقد اشتملت الآيتان على عدة أحكام شرعية

الحكم الأول : الفرار من الحرب من الكبائر

الحكم الثاني : كم عدد العدو الذي يحرم الفرار منه؟

هذه الآية حرمت الفرار من القتال وأما عدد العدو الذي يحرم الفرار منه فقد بينه الله تعالى في قوله : (ألئن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين[٥١].

فقد أوجبت هذه الآية على المسلمين أن يثبتوا أمام أعدائهم إذا كان العدو ضعفهم وقد كانوا من قبل مكلفين بملاقاة العدو والصمود أمامه حتى ولو كانوا عشرة أضعافهم فنسخ الله ذلك وخفف عن عباده رحمة بهم وتيسيرًا عليهم فإذا كان جيش الأعداء يزيد أضعافًا مضاعفة على جيش المسلمين، فإنه لا يجب عليهم ملاقاته إلا إذا كان هناك خطر جسيم كهجوم المشركين على ديار المسلمين فإنه يجب حينئذ الدفاع عليهم ويفترض القتال على الرجل والمرأة والكبير والصغير.

الحكم الثالث : هل يجوز الفرار عند الضرورة؟

يجوز الفرار عند الضرورة وذلك كأن يحيط العدو بالجيش أو يقطعوا على المجاهدين طريق المؤونة والغذاء. ويشهد لذلك ما روى عن ابن عمر رضى الله عنه قال "كنا في غزاة فحاص الناس حيصة (أي فروا أمام العدو) قلنا كيف نلقى النبيﷺ وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب فآتينا النبيﷺ - قبل صلاة الفجر، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن الفرارون، فقال : لا بلْ أنتم العكارون "أى الكرارون" فقبلنا يده، فقال أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين[٥٢].

٢- الثبات عند لقاء العدو

وهذا من دواعم القيم السامية والآداب الحربية الرفيعة ويقول جل شأنه (يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين[٥٣]).

***فقد اشتملت هذه الآية على خمس وصايا هي :**

١- الثبات عند لقاء الأعداء.

٢- ذكر الله في الحروب، واستحضار عظمته وقوته التي لا تقهر وإن الإيمان يمد المحارب بقوة معنوية هائلة تسند القوة المادية فتدعمها ويقول عز شأنه (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)[٥٤].

٣- الطاعة وهي طاعة الله أولا باتباع ما أمر به من الوصايا والأوامر التى تنهض بحال المسلمين وعدم معصيته، وطاعة رسوله ﷺ ويقول الله سبحانه وتعالى (يا أيها الذين أمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)[٥٥].

٤- عدم التنازع، فالتنازع في حال الحرب مدعاة للفشل وتغلب الأعداء على الفئة المتنازعة وقد أشرنا إليه قبل ذلك.

٥- الصبر على الشدائد، وما يلاقون من بأس العدو وكثرة عدوه، فإن الله مع الصابرين بالمعونة والتأييد والصبر[٥٦] في الحرب من أسباب النصر[٥٧].

٣- الأمر بالسمع والطاعة لأوامر الله ورسوله :-

وفي ذلك يقول الله عز شأنه :-

(ولو علم الله فيهم خيرًا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)[٥٨] هنا يقول الحق سبحانه وتعالى يا أيها الذين أتصفتم بالإيمان وأطيعوا الله ورسوله فيما أمر ونهى، ولا تعرضوا عن الأمر بالجهاد وبذل المال وغيرها. والحال أنكم تسمعون المواعظ والزواجر في القرآن والحديث. وإياكم أن تكونوا كالذين قالوا سمعنا والحال أنهم لا يسمعون أبدًا، إن شر المخلوقات عند الله من لا يصغي بسمعه إلى الحق. فيتبعه ويعتبر بالموعظة الحسنة، فيعمل بها، فإن من لا يستخدم جهاز السمع فيما خلق له كان كأنه فاقد له فهو أصم عن الحق والخير والهدى والفلاح والنجاح والرشاد.

٤-الاستجابة لدعوة الرسول :-

ففي الاستجابة لدعوة الرسول حياة وعزة وسعادة في الدنيا والآخرة وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون)[٥٩].

يأمر الله هنا بالاستجابة له ورسوله وذلك بالطاعة والامتثال إذا دعاهم لما يحييهم ، ويحثهم على الخير لهم، ويحرضهم على ما به يسعدون في الدنيا والآخرة. وقد دعانا الرسول ﷺ للإيمان والقرآن والهدى والجهاد ومن حرم هذا فهو ميت لا حياة فيه :-

٥-عدم الخيانة وإفشاء سر الأمة للأعداء :

إن في ذلك خيانة لله ولرسوله وخيانة للأمة ويقول الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أمانتكم وأنتم تعلمون)[٦٠].

يقول سبحانه وتعالى هنا يا من أتصفتم بالإيمان وتصديق الرحمن والاهتداء بالقرآن، لا تخونوا فتعطلوا فرائضه، أو تنقصوا شيئًا من أحكامه التي بينها لكم في كتابه فإن ذلك خيانة تتنافى مع الإيمان ولا تخونوا الرسول فيما أمركم به

ونهاكم عنه ولا تخونوه فترغبوا عن بيانه للقرآن فهو أدرى وأقرب فخيانـة الله والنبي عبارة عن تعطيل فرائض الدين وعدم العمل بأحكامه والاستنان بسننه، فإن هذا كله نقص لا يليق بالمؤمن والمؤتمن على دينه، على أن الخيانة من صفات المنافقين والأمانة من صفات المؤمنين ولا تخونوا الأمانة سواء كانت معاملات مالية أو شئونا سياسية أو سرًا من الأسرار أو عهدًا من العهود والحال أنكم تعلمون خطر الخيانة فعاقبتها الذل والهوان في الدنيا وخزي في الآخرة[٦١].

٦- تقوى الله

إن تقوى الله عز وجل أساس الخير كله. ومن أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني الذي يقذفه الله في قلوب المؤمنين وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)[٦٢].

والتقوى من الوقاية وهي امتثال الأمر واجتناب النهي لأن هذا يكون وقاية للعبد من النار. يا أيها المؤمنون فتقوى الله تتم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعل لكم فرقانا، فيكون المسلم حيث أمره الله ولا يكون حيث نهاه الله، هذه التقوى إن حصلت لعبد جعل الله له نورًا يمشي به بين الناس، وحكمة يهتدي بها، وعلما نافعًا، وعملاً صالحًا، وهذا كله يجعله يفرق بين الحق والباطل والنافع والضار ويهدي إلى الصراط المستقيم إن تقوى الله تجعل لكم فرقانًا وتكفر السيئات السابقة ويغفر لكم الذنوب ويدخلكم جنات النعيم والله سبحانه ذو الفضل العظيم.

٧- أن القتال لرد الأعداء وأنه سينتهي بنهايته :

وفي ذلك يقول الله عز وجل

(قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير وإن تولوا فأعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير)[٦٣].

وهنا يقول الله عز وجل لرسوله قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك، إن ينتهوا من الكفر ويؤمنوا بالله ويتركوا قتالك وقتال المؤمنين، يغفر لهم ما قد سلف من الذنوب والآثام، وإن عادوا إلى قتالك وتكذيبك، فقد مضت سنتي في تدمير وإهلاك المكذبين لأنبيائي فكذلك نفعل بهم. وهذا وعيد شديد لهم بالدمار إن لم يقلعوا عن العدوان والمكابرة والعناد. (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أي قاتلوا يا معشر المؤمنين أعدائكم المشركين حتى لا يكون شرك ولا يعبد إلا الله وحده وحتى لا يبقى مشرك على وجه الأرض (ويكون الدين كله لله) أي تضمحل الأديان الباطلة ولا يبقى إلا دين الإسلام[٦٤].

٨-احترام العهود والمواثيق

إن المعاهدات أداة هامة لتسوية العلاقات وفض المشاكل والمنازعات بالطرق السلمية كما أن العهود تقوم على الثقة بين الطرفين، فإذا فقدت هذه الثقة انهارت أهم دعائم السلام بين الشعوب والأمم. ولقد أحاط الإسلام العهود بكل صنوف الاحترام وهيأ لها كثيرًا من الضمانات مما جعل المسلمين يرتفعون بها فوق مصالحهم. وليس لازمًا في شريعة[٦٥] الإسلام، أنه إذا قضت الظروف بنزاع بين المسلمين وبين خصومهم أن يخيرهم بين الإسلام والجزية والحرب وليست هذه العادات الثلاث التي كانت تعرض على الأعداء. فإننا نجد اتفاقات وعهودًا وحالات سلام كانت قائمة بين الرسول ومن يجاوره من القبائل والعشائر[٦٦] كما أن العهود والمخالفات التي عقدها النبيﷺ كان هدفها أمرًا واحدًا مطردًا[٦٧] هو نشر الدعوة الإسلامية، والوصول بهذه الدعوة إلى كافة القبائل والشعوب. ولهذا أوجب القرآن على المسلمين الوفاء بعهودهم في كثير من الآيات وجعل القرآن الخروج من فضيلة الوفاء كالخروج من فضيلة الإنسانية كلها ويقول تعالى (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون)[٦٨].

ولا يبغي الإسلام من وراء المعاهدات سيطرة ولا تملكًا ولا استعمارًا، بل يهدف دائمًا إلى إقرار السلام.

ويقول الحق سبحانه (الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين)[٦٩].

أي إما تخافن من قوم معاهدين خيانة ونكثا لأمارت تلوح لك فاطرح إليهم العهد على سواء، أي على طريق مستقيم وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخبارًا مكشوفًا بينًا، أنك قطعت العهد وما بينك وبينهم، ولا تناجزهم في الحرب وهم على بقاء توهم العهد فيكون ذلك خيانة منك إن الله لا يحب الخائنين.

قال النحاس : هذا من معجز ما جاء في القرآن مما لا يوجد في الكلام مثله على اختصاره وكثرة معانيه.

والمعنى : إما تخافن من قوم بينك وبينهم عهد خيانة، فأنبذ إليهم العهد، أى قل لهم قد نبذت إليكم عهدكم وأنا مقاتلكم، ليعلموا ذلك فيكونوا معك في العلم سواء ولا تقاتلهم وبينك وبينهم عهد وهم يثقون بك فيكون ذلك خيانة وغدرًا (إن الله لا يحب الخائنين).

وهكذا كالتعليل للأمر بنبذ العهد أي لا يحب من ليس عنده وفاء ولا عهد[٧٠].

٩-اليقظة والاستعداد الدائم للحرب

وفي ذلك يقول الله عز وجل :

(وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وأخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)[٧١].

في هذه الآية الكريمة يأمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بأن يكونوا دائمي اليقظة والاستعداد لأعدائهم بكل ما يستطيعون من قوة وهو أمر لا يختص بزمان ولا بفريق من الناس. ولفظ الدعوة عام يشمل كل ما يتقوى به على حرب الأعداء وكل ما هو آلة للحرب من الحصون وأسلحة البر والبحر والجو على اختلاف أنواعها وأشكالها. فالآية الكريمة دمغت على اختصارها أنواع الإعداد للجيوش التي تتلائم مع كل عصر وزمن كالإعداد الحربي والمادي والمعنوي والإداري والفني والمالي مع الحث على ذلك بالثواب الجزيل والعطاء الكثير.

١٠-الاستجابة لمن طلب الأمان

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين)[٧٢].

يأمر الله سبحانه وتعالى باليقظة والاستعداد التام للحرب. وإذا مالوا إلى الصلح وطلبوا عقد الهدنة والأمان، فمل إليه وأجبهم إلى ما طلبوا إن كان فيه مصلحة (وتوكل على الله) أي فوض الأمر إلى الله ، ليكون عونًا لك على السلامة، فالله سبحانه السميع لأقوالهم العليم بنياتهم، وإن أرادوا بالصلح خداعك ليستعدوا لك، فإن الله يكفيك وهو حسبك.

ثم ذكره بنعمته عليه فقال (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) أى قواك وأعانك بنصره، وشد أزرك بالمؤمنين.

هذه آداب وفلسفة الحرب في الإسلام وقد أشرنا إليها في غير موضع من هذا الكتاب كلما رأينا ذلك مناسبًا وذلك لرد على من سولت لهم أنفسهم إن الإسلام نشر بحد السيف أو الإكراه أو إن أتباعه يعتدون على الناس كما تفعل الدول الكبرى ولنكشف عن سماحة الإسلام مع غير المسلمين والعلاقات بين من جاورهن ومدى اتفاق القوانين الدولية ما دعى إليه الإسلام مما يسجل فضل السبق لإسلامنا الحنيف على الحضارة المدنية الحديثة. وذلك من أجل أن يعيش المجتمع الإنساني ينعم بالأمن والأمان والاستقرار في ظل تعاليم الدين الإسلامي السمحة. دون أن يقتل ويعتدي ويتسلط أو يتجبر الإنسان على أخيه الإنسان[٧٣].

هوامش ومراجع الفصل الثالث

١- هيجل (فردريش) Hegel (١٧٧٠ - ١٨٣١) : فيلسوف ألماني . ولد في شتوتغارت. قال إن الكائن والفكر شئ واحد هو الفكرة. والفكرة تتطور على مراحل: الإثبات ثم النقض ثم الخلاصة . له "المنطق الكبير" و"مبادئ فلسفة الحق": المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت ط٣٤، ١٩٩٤ ص٦٠٦.

٢- كارل ماركس: (١٨١٨ - ١٨١٣) فيلسوف اجتماعي ألماني . أشهر آثاره "رأس المال": منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣٠، ١٩٩٦، ص٥٩.

٣- سورة البقرة آية : ٢٥١.

٤- قسطنطين : الكبير (نحو ٢٨٠ - ٣٣٧). ابن قسطنتيوس كلورس. امبراطور روماني ٣٠٦. هزم خصمه ماكسانس على أبواب روما ٣١٢ وأطلق الحرية للدين المسيحي ٣١٣. تخلص من ليقينيوس ٣٢٤ فوضع حداً للنظام الرباعي ووحد الامبراطورية. أسس القسطنطينية عاصمة جديدة ٣٣٠ : المنجد في اللغة والإعلام. دار المشرق، بيروت ط٣٤، ١٩٩٤، ص٤٣٨.

٥- سورة الممتحنة آية : ٨.

٦- سورة النساء آية : ٩٠.

٧- سورة البقرة آية : ٢٠٨.

٨- سورة الأنفال آية : ٦١.

٩- سورة الحج آية : ٣٩ - ٤٠.

١٠- محمد عبده، الإسلام والنصرانية، مطبعة المنار، مصر، بدون تاريخ، ص١٦٠.

١١- سورة الحج آية : ٤١.

١٢- العدالة : صفة تلزم صاحبها المحافظة على أوامر الدين ونواهيه والعرف والعادات والتقاليد الاجتماعية أى أن العدالة بهذا المفهوم دينية اجتماعية : عثمان موافي، منهج النقد التاريخي الإسلامي، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص١١١، ١١٢.

١٣- سورة البقرة آية : ١٩٠ - ١٩٣.

١٤- سورة البقرة آية : ٢٤٤.

١٥- سورة الحج آية : ٧٨.

١٦- سورة النساء آية : ٧٤، ٧٥.

١٧- سورة النساء آية : ٧٦.

١٨- سورة القصص آية : ٨٣.

١٩- سورة البقرة آية : ١٤٣.

٢٠- سورة الأعراف آية : ١٥٨.

٢١- الزرادشتية : نسبة إلى زرادشت Zoroaster (٦٢٨ - ٥٥١ ق. م.) مصلح ديني فارسي. نبي الزرادشتية ومؤسسها : منير البعلبكي. المورد. ص٩١.
٢٢- نجيب الارمنازي، الشرع الدولي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ. ص٤٩.
٢٣- عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص٢٤٠.
٢٤- القانون : Law ظاهرة اجتماعية ، وهو وسيلة هامة من وسائل الضبط الاجتماعي .. ويمثل القانون قمة التنظيم الاجتماعي للسلوك الإنساني حيث يحدد صراحة ما يجب على الفرد عمله وما يجب عليه الامتناع عنه. بالإضافة إلى ذلك فالقانون يحدد العقوبة التي تنزل بمن يخالف ما جاء به: أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٤١.
٢٥- رواه مسلم.
٢٦- سورة البقرة آية : ١٩٠.
٢٧- رواه مسلم.
٢٨- رواه مسلم.
٢٩- سورة النحل آية : ١٢٦ - ١٢٧.
٣٠- الإيمان : الإيمان بوجود الله فطرة في النفس الإنسانية وهو أمر ضروري يحصل للإنسان كثمرة من ثمرات مواهبه العقلية : عفيف عبد الفتاح طباره، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٧٣، ص٦٥.
٣١- سورة الإنسان آية ٨ - ٩.
٣٢- سورة محمد آية : ٤.
٣٣- العقيدة : ما لا يشك معتقدة فيه، كعقيدة وجود الله، وبعثة الرسل وجمعها عقائد: مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، القاهرة، ١٩٩١م، ص٤٢٦.
٣٤- سورة الأنفال آية : ٦٠.
٣٥- سورة البقرة آية : ١٩٥.
٣٦- سورة الأنفال آية : ٤٥ - ٤٦.
٣٧- سورة الأنفال آية : ١٢.
٣٨- سورة الأنفال آية : ٦٥.
٣٩- سورة آل عمران آية : ١٦٩.
٤٠- سورة البقرة آية : ٢١٦.
٤١- الذكاة : صدقة والصدقة زكاة يفترق الاسم ويتفق المسمى والذكاة في اللغة معناها الطهارة وسمى الله الصدقة المفروضة زكاة لأنها تطهير النفس : وعفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ص٢١٥.
٤٢- البلاذري، فتوح البلدان، بدون ناشر، ص١٢١.
٤٣- محمود شلتوت، القرآن الكريم والقتال، مطبعة الكتاب العربي، القاهرة، ص١٠٨.

٤٤- سورة التوبة آية : ٦.
٤٥- سورة الإسراء آية : ٣٤.
٤٦- سورة الأنفال آية : ٥٥ – ٥٦.
٤٧- سورة الأنفال آية : ٧٢.
٤٨- سورة التوبة آية : ١٢.
٤٩- سورة الأنفال آية : ١٥ – ١٦.
٥٠- الجريمة : هي كل فعل يتعارض مع ما هو نافع للمجتمع وما هو عدل في نظرها أو هي كل انتهاك لأي قاعدة من قواعد السلوك مهما تكن هذه القاعدة أو هي سلوك اجتماعي يكون موجهًا ضد مصالح المجتمع ككل أو انتهاك وخرق للقواعد والمعايير الأخلاقية للجماعة: السيد رمضان، الجريمة والانحراف من المنظور الاجتماعى، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص٩.
٥١- سورة الأنفال آية : ٦٦.
٥٢- رواه الترمذي.
٥٣- سورة الأنفال آية : ٤٦.
٥٤- سورة الرعد آية : ٢٨.
٥٥- سورة النساء آية : ٥٩.
٥٦- الصبر : من الفضائل الخلقية وهو النفحة الروحية التي يعتصم بها المؤمن فتخفف من بأسه وتدخل إلى قلبه السكينة والاطمئنان. فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد والعفاف هو الصبر على الشهوات والحلم هو الصبر على المثيرات والكتمان هو الصبر على إذاعة الأسرار : عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، ص٢١٣، ٢١٤.
٥٧- محمود شيث خطاب، إدارة القتال في الجهاد الإسلامي، دار الفكر، ١٣٩٨هـ، ص١٤٠.
٥٨- سورة الأنفال آية : ٢٠ – ٢٣.
٥٩- سورة الأنفال آية : ٢٤.
٦٠- سورة الأنفال آية : ٢٧.
٦١- إسماعيل محمد، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٠١هـ، ص١٦٠.
٦٢- سورة الأنفال آية : ٢٩.
٦٣- سورة الأنفال آية : ٣٨ – ٤٠.
٦٤- عثمان جمعه، منهج الإسلام في الحرب، مكتبة الأرقم، الكويت، ١٤٠٢هـ، ص٦٠.
٦٥- شريعة يقصد بهذا الاصطلاح القانون نفسه أو وضعه وصدوره عن الهيئة التشريعية المختصة : أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، ص١٣٣.
٦٦- العشيرة : Clan جماعة قرابية تقوم على الانحدار الأمى أو الأبوى ويعتقد أعضاء العشيرة أنهم منحدرون من جد واحد مشترك من خلال خط الانحدار المتعارف عليه

ثقافيًا "سواء كان أمويًا أو أبويًا" وتقوم بوظائف دينية وسياسية واقتصادية: محمد علي محمد، المراجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية ، ١٩٨٥م، ص٦٠.

٦٧- مطرد : Regular هو ما يسير على وجه ثابت، أو ما يخضع للقاعدة بإطراد : مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي القاهرة، ١٩٨٣، ص١٨٥.

٦٨- سورة الأنفال آية : ٥٥ – ٥٦.

٦٩- سورة الأنفال آية : ٥٦ – ٥٨.

٧٠- تفسير القرطبي ٨/ ٣٢.

٧١- سورة الأنفال آية : ٦٠.

٧٢- سورة الأنفال آية : ٦١ – ٦٢.

٧٣- محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الدار السعودية للنشر، بجدة، ١٤٠١هـ، ص١١.

الفصل الرابع

"أغراض الحرب في الإسلام"

-هل انتشرت دعوة الإسلام بالسيف

-هل الإسلام وحده هو الذي أوصى بالسيف لحماية الحق.

-خطوات الإسلام ومواضع من ضمانات لإقرار السلام.

-أين خطوات زعماء هذا العصر من هذه الخطوات.

وفي الوقت الذي يقرر الإسلام فيه الاستعداد للحرب ونجده يحرم الحرب ويسمو بها ولا يدعو إليها أو يشجع عليها إلا لهذه الأغراض الأساسية السامية العالية الحقة :

١- رد العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والوطن والدين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين"[١]. وكانت أول آية من آيات القتال نزلت وفيها الإذن به قول الله تعالى : "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله"[٢]. وفي الآية الثالثة : "ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله .. إلخ".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال "جاء رجل إلى النبيﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت إن عدى على مالي؟ قال : فانشد بالله ، قال : فإن أبوا علي؟ قال : فانشد بالله ، قال : فإن أبوا علي؟ قال : فانشد بالله ، قال فإن أبوا علي؟ قال : فقاتل، فإن قتلت ففي الجنة، وإن قتلت ففي النار"[٣].

وعن سعد ابن زيد رضي الله عنه قال سمعت رسول اللهﷺ يقول "من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد"[٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال سمعت رسول اللهﷺ يقول "من أريد ماله بغير حق فقاتل فقتل فهو شهيد"[٥].

٢- تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون أن يفتنوهم عن دينهم وفي ذلك يقول القرآن الكريم : "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل"[٦]. ويقول في آية أخرى "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين"[٧].

٣- حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعًا ويتحدد موقفهم منها تحديدًا واضحًا وذلك أن الإسلام رسالة اجتماعية إصلاحية شاملة تنطوي على أفضل مبادىء الحق والخير والعدل وتوجه إلى الناس جميعًا كما قال الله تبارك وتعالى لنبي الإسلام محمدﷺ "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرًا ونذيرًا" فلابد أن تزول من طريقها كل عقبة تمنع من إبلاغها ولابد أن يعرف موقف كل فرد وكل أمة بعد هذا البلاغ، وعلى ضوء هذا التحديد تكون معاملة الإسلام[٨] وأهله للناس فالمؤمنون إخوانهم والمعاهدون لهم عهدهم وأهل الذمة يوفى لهم بذمتهم والأعداء المحاربون ومن تخشى خيانتهم ينبذ إليهم فإن عدلوا عن خصومتهم

فيها وإلا حوربوا جزاء اعتدائهم حتى لا يكونـوا عقبة في طريـق دعـوة الحـق أو مصدر تهديد وخيانة لأهلها لا إكراهًا لها على قبـول الدعـوة ولا محاولة لكسب إيمانهم بـالقوة "لا إكـراه في الديـن قـد تبـين الرشـد مـن الغـي"[٩] والآيـات والأحاديث ناطقة بذلك مفصلة إياه في مثـل قـول الله تعالى "وإما تخافن من قـوم خيانة فانبذ إليهم على سواء"[١٠] و"فليقاتل في سبيل الله الذيـن يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نوتيه أجـرًا عظيمًا"[١١]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ "أمرت أن أقاتل النـاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسـول الله ويقيمـوا الصـلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلـك عصمـوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحـق الإسلام وحسابهم على الله"[١٢].

٤- تأديب ناكثي العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين التي تتمرد على أمر الله وتأبى حكم العدل والإصلاح وفي ذلك يقول القرآن الكريم "وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر أنـهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون ألا تقاتلون قومًا نكثـوا أيمانـهم وهمـوا بإخراج الرسـول وهم بدؤوكم أول مرة"[١٣].

٥- إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين وفي ذلك يقول القرآن الكريم "والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شئ حتـى يهاجروا وإن استنصروكم في الديـن فعليكـم النصر إلا على قـوم بينكـم وبينـهم ميثاق والله بما تعملون بصير"[١٤].

جـ- تحريم الحرب لغير ذلك من الأغراض : فكل مـا سوى هـذه الأغـراض الإنسانية الإصلاحية الحقـة مـن المقاصد الماديـة أو الشخصية أو النفعيـة فإن الإسـلام لا يجيز الحـرب مـن أجلـها بحـال مـن الأحـوال وذلـك واضـح كـل الوضـوح إضافـة الإسـلام القتال أو الجهاد دائمًا إلى سبيل الله فلا ترد واحدة من هـاتين الكلمتـين في بحـث مـن البحـوث الإسلامية إلا مقرونـة بهذا السبيل . علـى أن القرآن الكريـم قـد صـرح بتحريم كل قتال لغير هذه الأغراض المشروعة وأكدت هذا التحريـم أحاديث النبي محمد وسجل التاريخ ذلك لأصحابه الذين لم يريدوا بقتـالهم شيئاً أبـدًا إلا وجـه الله وتحقيق المقاصد المتقدمة كلها أو بعضها[١٥] وفي ذلـك يقـول القرآن الكريم "يـا أيـها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا أن الله كان بما تعملون خبيرًا"[١٦].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله"[١٧].

ولقد تأثر أصحاب النبي حتى الأعراب منهم بهذا السمو في الغرض من القتال ومن شداد بن الهاد رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء فآمن بالنبي ثم قال أهاجر معك فأوصى النبي به بعض أصحابه فكانت غزاة غنم النبي فيها شيئا فقسم وقسم له فقال ما هذا فقال قسمته لك قال ما على هذا اتبعتك ولكني اتبعتك على أن أرمي إلى ههنا وأشار بيده إلى حلقه بسهم فأموت فأدخل الجنة فقال أن تصدق الله يصدقك فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به النبي محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار فقال النبي أهو هو قالوا نعم قال صدق الله فصدقه ثم كفن فى جبة النبي ثم قدمه فصلي عليه فكان مما ظهر من صلاته اللهم إن هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك فقتل شهيدًا وأنا شهيد على ذلك"[١٨].

وصحف التاريخ فياضة بمثل هذه الزهادة منهم في عرض الحياة الدنيا وغنائم الفتح وإن غرضهم من الجهاد لم يكن شيئا إلا إعلاء كلمة الله وحماية دعوته في الناس.

د - إيثار السلم كلما أمكن ذلك والتشجيع عليها. فالمسلم لا يحارب إلا مكرها على القتال بعد استنفاذ وسائل المسالمة جميعًا - وحين تلوح بارقة أمل في السلم يوجب عليه الإسلام أن ينتهزها وإلا يدع الفرصة تفلت من يده وعليه أن يعمل على إطفاء نار الحرب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وفي ذلك يقول القرآن الكريم "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم"[١٩].

هـ - الرحمة في الحرب ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية : فإذا كانت الحرب ولابد فإن المسلم يضرب فيها أروع المثل على الرحمة والتفضل ومراعاة أعلى آدابها الإنسانية فإذا رجحت كفة المسلمين على أعدائهم وظهرت الغلبة لهم فإن عليهم بحكم القرآن أن يكفوا عن القتل ويكتموا بالأسر ليمنوا على الأسير بعد ذلك بحريته أو يفتدوا به مثله من أساراهم فيحسنوا إلى إنسانين من عباد الله.

والمسلم في قتاله، لا يغدر ولا يفجر ولا يفسد ولا يتلف ولا ينهب مالاً ولا يقتل امرأة ولا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا ولا يتبع مدبرًا ولا يجهز على جريح ولا يمثل بقتيل ولا يسئ إلى أسير ولا يتعرض لمسالم أو رجل دين ولا يقصد أن يضرب وجهًا أو يقتل صبيًا.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول اللهﷺ "أعف الناس قتله أهل الإيمان"[٢٠].

وعن بريدة رضي الله عنه قال : كان رسول اللهﷺ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال اغزوا باسم الله في سبيل اله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا[٢١].

وكانت هذه الوصية شعار الخلفاء والأمراء، يوصون بها دائمًا قواد الجيش حين يبعثون بهم إلى القتال. أوصى أبو بكر فهل رأت الساحات الميادين أرق من هذه الأفئدة وألين من هذه القلوب؟

و - الوفاء بالعهود والمواثيق والشروط : فإذا كانت هدنة وموثق وعهد وصلح وشرط فالإسلام يشدد في ملاحظة ذلك والمحافظة على صورته ومعناه أدق المحافظة ويتوعد المخالفين من أبنائه إن غدروا ولم يفوا بأشد الوعيد. والآيات والأحاديث في ذلك واضحة محكمة لا تدع مجالاً لإباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة وعده قصاصة ورق عند إمكان الخروج عليه بالحيلة، وفي ذلك يقول القرآن الكريم : "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيام ما كنتم فيه تختلفون"[٢٢].

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء الصحابة عن آبائهم رضي الله عنهم أن رسول اللهﷺ قال : "من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه فإنه حجيجه يوم القيامة"[٢٣].

قال أهل سمرقند لعاملهم سليمان بن أبي السرى : إن قتيبة غدر بنا وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين - وهو يومئذ عمر بن عبد العزيز - يشكون ظلامتنا فإن كان لنا حق أعطيناه. فإن بنا إلى ذلك حاجة، فأذن لهم فوجهوا منهم قومًا إلى عمر، فلما علم عمر ظلامتهم كتب إلى سليمان يقول له " إن أهل سمرقند قد شكوا إلى ظلما أصابهم، وتحاملا من قتيبة عليهم حتى أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي هذا فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة". فأجلس لهم سليمان "جميع بن حاضر" القاضي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون

صلحًا جديدًا أو ظفرا عنوة. فقال أهل السند : جل ترضى بما كان. ولا نجدد حربًا. لأن أهل الرأى منهم قالوا : قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم وأمنونا وأمناهم فإن عدنا إلى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا نكون قد اجتنبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان عليه ورضوا ولم ينازعوا، وهذا منتهى المبالغة في تقصي العدل والوفاء بالعهد(٢٤).

ز – الجزية : ولسنا نحب أن تمر هذه الكلمات عن موقف الإسلام من الحرب قبل أن نتناول أمر الجزية بكلمة توضح معناها والمقصود منها وتكشف عن حكمتها وكيف أنها أبلغ معاني الإنصاف والمرحمة التي جاء بها الإسلام فنقول : الجزية ضريبة كالخراج تجبي على الأشخاص لا على الأرض والكلمة عربية مشتقة من الجزاء. لأنها تدفع نظير شيئ هو الحماية والمنعة، أو الإعفاء من ضريبة الدم والجندية. وذهب بعض العلماء إلى أنها فارسية معربة وأصلها "كزيت" ومعناها الخراج الذي يستعان به على الحرب – وقال إن كسرى هو أول من وضع الجزية وعلى هذا فهي نظام في الضريبة نقله الإسلام عن الفارسية ولم يبتكره.

ولقد قرر الإسلام ضريبة الجزية على غير المسلمين في البلاد التي يفتحها نظير قيام الجند الإسلامي بحمايتهم وحراسة أوطانهم والدفاع عنها في الوقت الذي قرر فيه أعفاءهم من الجندية. فهي (بدل نقدي) لضريبة الدم، وإنما سلك الإسلام هذه السبيل ولجأ إليها مع غير المسلمين من باب التخفيف عليهم والرحمة بهم وعدم الإحراج لهم حتى لا يلزمهم أن يقاتلوا في صفوف المسلمين فيتهم بأنه إنما يريد لهم الموت والاستئصال والفناء والتعريض لمخاطر الحرب والقتال ، فهي في الحقيقة "امتياز في صورة ضريبة" وفي الوقت نفسه احتياط لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوي العقيدة الصحيحة والحماسة المؤمنة البصيرة، ومقتضى هذا أن غير المسلمين من أبناء البلاد التي تدخل تحت حكم الإسلام إذا دخلوا في الجند أو تكفلوا أمر الدفاع أسقط الإمام عنهم الجزية – وقد جرى العمل على هذا فعلاً في كثير من البلاد التي فتحها خلفاء الإسلام، وسجل ذلك قواد الجيوش الإسلامية في كتب ومعاهدات لازالت مقروءة في كتب التاريخ الإسلامي

ح – الحث على دوام الاستعداد وكمال الشجاعة إذا تحتم الجهاد.

فإذا كان ولابد من الحرب لغرض من الأغراض الإنسانية المشروعة التي سبقت الإشارة إليها، فإن الجهاد يكون أفضل القربات إلى الله تبارك وتعالى والموت في ساحاته "شهادة" توجب الإكبار في الدنيا والجنة في الآخرة ولا يعني منه إلا العاجزون عنه وعليهم أن يجهزوا غيرهم إن كانوا قادرين على ذلك وأن يخلفوهم في أهليهم بخير "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة

يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم"[٢٥].

وأحاديث النبي محمدﷺ في ذلك أكثر من أن تحصر وقد باشر هو بنفسه القتال في أكثر من خمس وعشرين معركة كان فيها مثال الشجاعة والنجدة والبأس حتى قال فارس أصحابه علي كرم الله وجهه، "كنا إذا اشتد البأس وحمي الوطيس واحمرت الحدق اتقينا برسول اللهﷺ فيكون أدنانا إلى العدو" وكذلك كان أصحابه رضوان الله عليهم يفعلون.

ولا يستطيع أحد أن يرى في هذه الأحكام والأخلاق لمثل ما شرعت له من مقاصد وأغراض إلا أكرم معاني الفضيلة الإنسانية وجود بالنفس أقصى غاية الجود وأجمل ما يكون الحق إذا استعان بالقوة وأفضل ما تكون القوة إذا استخدمت للحق بالحق[٢٦].

ب- هل انتشرت دعوة الإسلام بالسيف؟

أولع خصوم الإسلام في كل عصر وبخاصة في هذا العصر بتوجيه هذه التهمة إلى الإسلام والإسلام منها براء. فهو لم يكره الناس على الإيمان بالسيف ولم يضعه على رقابهم ليشهدوا بشهادته أو يدينوا بعقيدته فهذه التهمة باطلة من وجوه عدة.

١- باطلة بشهادة التاريخ الذي يحدثنا بأن النبي محمدًاﷺ مكث بمكة المكرمة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى دينه كان فيها مضطهدًا أشد الاضطهاد حتى من أهله وعشيرته وأقرب الناس إليه ومع ذلك فقد احتمل وصبر وصابر وكان يمر على النفر من أصحابه والأسرة من المؤمنين به يعذبون أشد العذاب فلا يزيد على أن يقول لهم "اصبروا آل ياسر إن موعدكم الجنة" ومع هذا فقد آمن بالإسلام السابقون الأولون الثابتون من أبنائه وأبرهم به في عهد النبيﷺ وبعد وفاته أعمق الإيمان وآمن الأنصار وهم أهل المدينة بالنبيﷺ بمجرد أن تحدث معهم في الموسم وتوافدوا إليه يبايعونه في كل عام حتى كانت بيعة العقبة وعلى أثرها كانت الهجرة وكل ذلك ورسول اللهﷺ لا يقابل أهل العدوان بسيف ولا عصا ولكن يصبر ويحتسب ويقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون وما جاء الأذن بالقتال إلا في السنة الثانية من الهجرة بعد أن كثر خصوم الإسلام من المشركين واليهود وتألبوا عليه وأخذوا يتحرشون به ويكيدون له فأنزل الله هذه الآيات المحكمة وفيها أروع صور الأذن بالقتال لأنبل المقاصد والأغراض "آذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا

أن يقولوا ربنا الله، ولولا رفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور"[٢٧].

والتاريخ يحدثنا عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم فتحوا البلاد بأخلاقهم وحسن معاملتهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم وعدتهم وعددهم، فلا يتصور أن عددا قليلا من هؤلاء العرب يثل عرش كسرى ويدك ملك قيصر ويرث هذه الامبراطوريات الضخمة في هذا العدد من السنين بمجرد القوة، ولا يعقل أن ثمانية آلاف جندي يفتحون إقليما شاسعا كمصر وينشرون فيها دينهم ولغتهم وآدابهم وثقافتهم وعقيدتهم بالإكراه والجبروت، ولكن بحسن الأحدوثة وجميل العمل، فكيف يقال بعد هذا إن الإسلام قام على السيف.

٢- وباطلة بآيات القرآن الكريم التي تقرر حرية العقيدة وتقول في وضوح وصراحة "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"[٢٨] كما تقول "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر أنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا"[٢٩].

٣- وباطلة لأن قواعد الإسلام وما جرى عليه العمل به منها تأباها كل الإباء فأساس الإيمان في الإسلام الفكر[٣٠] والنظر والاطمئنان القلبي.

"قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم"[٣١] وأساس المؤاخذة في الإسلام بلوغ الدعوة على وجه يدعو إلى النظر، والتقليد في الإيمان ليس أساسا صحيحا له فضلا عن الإكراه عليه حتى قال بعض العلماء المتأخرين في منظومة فنية : إذ كل من قلد في التوحيد إيمانه لم يخل من ترديد وقول المكره في الإسلام مردود عليه ولا يؤاخذ على عمله. فالدين الذي يعتبر العقل والحرية أساسا للاعتقاد والمسئولية لا يمكن أن يقال فيه أنه يقوم على السيف وينتشر به، وإن كان قد شرع الحرب والقتال لما تقدم من الأغراض التي لا يعترض عليها إلا واهم أو مكابر. وعلامة الإيمان الحق الاطمئنان إليه. "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب"[٣٢].

*هل الإسلام وحده هو الذي أوصى بالسيف لحماية الحق :-

وليس الإسلام وحده هو الذي أشار إلى القتال والحرب والجهاد كوسيلة لحماية الحق، بل إن الشرائع السابقة واللاحقة كلها جاءت بذلك.

فأسفار التوراة التي يتداولها اليهود اليوم طافحة بأنباء القتال والجهاد والحرب والتخريب والتدمير والهلاك والسبي، وهي تقرر شريعة القتال والحرب ولكن في أبشع صورها.

وفي انجيل متى المتداول بأيدي المسيحيين في الإصحاح العاشر عدد ٢٥ وما بعده يقول "لا تظنوا أني جئت لألقي سلامًا على الأرض بل سيفًا فإنني جئت لأفرق الإنسان ضد ابنه والابن ضد أبيه والكنة ضد حماتها .. وأعداء الإنسان أهل بيته، من أحب أبا أو أما أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني، ومن وجد حياته يضيعها، ومن أضاع حياته من أجلي يجدها"(٣٣).

والقانون الدولي العصري قد اعترف بالظروف والأحوال التي تشرع فيها الحرب ووضع لها قواعدها ونظمها.

وما جاء به الإسلام في هذا الباب أفضل وأدق وأرحم وأبر بالسلام من كل هذا، فلماذا تتوجه إليه الشبهات وليس غيره سبيلاً إلى السلام "قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم"(٣٤).

*خطوات الإسلام وما وضع من ضمانات لإقرار السلام:

وفي وسعنا بعد هذه النظرات أن نقول : إن الإسلام كان أول وأكمل تشريع خطا في سبيل إقرار السلام العالمي أوسع الخطوات، ورسم لاستقراره أو في الضمانات التي لو أخذت الأمم بها، وسلك الحكام والزعماء والسادة نهج سبيلها لأراحوا واستراحوا ومن ذلك :

١- تقديس معنى الإخاء بين الناس والقضاء على روح التعصب .

٢- الإشارة بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح الكريم مع افتراض الوفاء وتحريم الغدر ونقض العهود والمواثيق.

٣- حصر فكرة الحروب في أضيق الحدود وتحريم العدوان بكل صورة وإشاعة العدل والرحمة واحترام النظام والقانون حتى في الحرب نفسها، وللإسلام في ذلك القدح المعلي ويقول القرآن الكريم تأكيدًا لهذا المعنى "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون(٣٥).

٤- التأمين المسلح وقد سبق الإسلام كل الخطوات العصرية إليه في قول القرآن الكريم "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما

على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله، فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين[٣٦].

*أين خطوات زعماء هذا لعصر من هذه الخطوات:

"وبعد فأين خطوات زعماء هذا العصر وسادته وعلمائه ومشرعيه وفلاسفته من هذه النظرات وماذا صنعوا لإقرار السلام على الأرض وقد شهدت الدنيا في ربع قرن حربين عالميتين طاحنتين أكلتا الأخضر واليابس وقامت بعد الحرب الأول "عصبة الأمم" لإقرار السلام فكتب لها أن تموت قبل أن تولد، ووأدها الذين شهدوا مولدها، بالأهواء السياسية والأطماع الاستعمارية فلم تستطع أن تعالج قضية واحدة من قضايا الخلاف بين الأمم التي اشتركت فيها ووقعت ميثاقها، ولم تلبث إلا ريثما تهيأت الأمم والشعوب للحرب من جديد، وقيل إن سبب فشلها خلو ميثاقها من النص على العقوبة العسكرية للمخالفين وعقب الحرب العالمية الثانية قامت هيئة الأمم المتحدة، وأنشئ مجلس الأمن واستكمل النقص التشريعي في بناء عصبة الأمم الموءودة ومضى على ذلك وقت طويل، ولا زال الخلاف يشتد أثره ويقوى مظهره. ولم تنجح الهيئة ولا المجلس إلى الآن في علاج قضية أو تسوية خلاف وليس وراء ذلك إلا الحرب الثالثة.

وليس معنى الحرب الثالثة شيئا إلا فناء الأرض ومن عليها فنحن في عصر القنبلة الذرية وأسلحة الدمار الشامل.

وها نحن الآن نشاهد ما يحدث في فلسطين من دمار وتخريب وهدم للبيوت وتشريد أهلها وكذا نشهد ما يحدث للعراق على يد أكبر وأقوى الدول التي ضربت بقرارات مجلس الأمن عرض الحائط حيث لم تستفيد الإنسانية من دروس السلام التي وضع فلسفتها الإسلام دين السلام.

هوامش الفصل الرابع

١- سورة البقرة آية : ١٩٠.
٢- سورة الحج آية : ٣٩ - ٤٠.
٣- رواه مسلم والنسائي
٤- رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه
٥- رواه البخاري والترمذي.
٦- سورة البقرة آية : ٢١٧.
٧- سورة البقرة آية : ١٩٣.
٨- الإسلام : المعنى اللغوي عنى اللغويون والمفسرون والمستشرقون برد المعنى الشرعي للفظ (إسلام) إلى أصله اللغوى ، وأثار البحث فيه كثيرًا من الجدل ، ونريد أن تنبت هنا الرأي الراجح فإذا تتبعنا مادة (سلم) في اللغة رأيناها تأتي بهذه المعاني.
أولاً: معنى الخلوص والتعري من الأفات الظاهرة أو الباطنة.
ثانيًا: معنى الصلح والأمان.
ثالثًا: معنى الطاعة والإذعان : عفيف عبد الفتاح طبارة، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، لبنان، ط١، ١٩٧٣، ص١٣.
٩- سورة البقرة آية : ٢٥٦.
١٠- سورة الأنفال آية : ٥٨.
١١- سورة النساء آية : ٧٤.
١٢- رواه البخاري ومسلم.
١٣- سورة التوبة آية ١٢ - ١٣.
١٤- سورة الأنفال آية : ٧٢.
١٥- أحمد نار، القتال في الإسلام، الدار السعودية للنشر، ط١، جدة، ٣٨٩هـ، ص١٧٤.
١٦- سورة النساء آية : ٩٤.
١٧- أخرجه الخمسة.
١٨- رواه النسائي.
١٩- سورة الأنفال آية : ٦١.
٢٠- أخرجه أبو داود.
٢١- أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي.
٢٢- سورة النحل آية ٩١ - ٩٢.
٢٣- أخرجه أبو داود.
٢٤- محمدابن ناصر الجعوان، القتال في الإسلام، ط١، ١٤٠١هـ، ص٥٤.
٢٥- سورة التوبة آية ١١١.

٢٦- اسماعيل محمد، نظرية الحرب في الشريعة الإسلامية، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤١٠هـ، ص١٢٢.
٢٧- سورة الحج آية ٣٩ – ٤٠.
٢٨- سورة البقرة آية ٢٥٦.
٢٩- سورة الكهف آية ٢٩.
٣٠- الفكر Thought: ظاهرة عقلية تنتج عن عمليات التفكير القائم على الإدراك والتحليل والتعميم ويتميز الفكر عن العاطفة التي تصدر عن ميل انفعالي ولا تستند على التجربة وتدور حول فكرة أو موضوع كما يتميز الفكر عن الإرادة التي ترمي إلى ترجيح كفة الميول القائمة على أحكام تقويمية ويقال قراءة الأفكار / أي فهم أفكار شخص أخر بدون استخدام الحواس أحمد زكي بدوى معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية مكتبة لبنان بيروت لبنان ١٩٨٦ ص٤٢٥ ويقصد بالفكر القدرة على كشف أسباب وجواهر الظواهر ويحثها بطريقة شاملة. م. روزنتال ب – يودين الموسوعة الفلسفية ترجمة سمير كرم . دار الطليعة للطباعة والنشر. بيروت لبنان ١٩٨٧. ص٢٩٦.
٣١- سورة الحجرات آية : ١٤.
٣٢- سورة الرعد آية ٢٨ – ٢٩.
٣٣- أنجيل متى الإصحاح العاشرة عدد ٢٥ وما بعدها.
٣٤- سورة المائدة آية ١٥ – ١٦.
٣٥- سورة المائدة آية ٨.
٣٦- سورة الحجرات آية ٩.

الفصل الخامس

الحرب من منظور علم الاجتماع الإسلامي

-الجهاد والحرب في الاجتماع الإسلامي

-الفرق بين مفهوم الحرب والجهاد

-المبادئ الاجتماعية لظاهرة الحرب الإسلامية

-بين الجهاد والرباط

-صفات القائد العسكري في الفكر الإسلامي

-الجهاد من منظور علم الاجتماع

الحديث عن ظاهرة[1] الحرب في الإسلام يعد من الاتجاهات الجديدة في علم الاجتماع بعامة وعلم الاجتماع الإسلامي بخاصة.

وعلم الاجتماع الحربي يعد شعبة حديثة في إطار الدراسات السوسيولوجية المعاصرة حيث بدأت الحرب يشتد أوزارها بنوعيها الباردة والساخنة، الأولى من خلال الشائعات والدعاية والإعلام وحرب الأعصاب والدس والوقيعة والفتن وسباق التسلح .. إلخ. والأخرى التي تحتدم فيها القتال بين الفئات المتصارعة في أمة واحدة أو أمتين. الأمر الذي ينذر بين الحين والحين بقيام حرب عالمية ثالثة خطيرة.

لقد دعا هذا علماء الاجتماع للاهتمام بدراسة الحرب، ودعا بعض العلماء المسلمين لتناول ظاهرة الحرب في الإسلام بالدراسة والتحليل السوسيولوجي في سياق مقارن بين الجهاد الذي نادى به الإسلام دفاعًا عن النفس ودعوة إلى إعلاء كلمة الحق، وبين الحرب الذي يشعل نيرانها الصراع والتنافس بين الأمم لتحقيق مأرب سياسي واقتصادي واجتماعي.

والواقع أن الدراسات في علم الاجتماع الحربي بدأت تتقدم في البلاد المتطورة تكنولوجيًا حيث تتناول هذه الدراسات الحرب بوصفها ظاهرة اجتماعية كامنة في طبيعة المجتمع البشري وأن لها أسبابًا[2] عميقة لا تخرج عن أن تكون أسبابًا اجتماعية، الأمر الذي دعا العلماء إلى دراسة الحرب في ذاتها لوضع النظريات[3] المفسرة لنشأتها وتطورها ودوافعها وأهدافها فحسب، وإنما وجهوا الأنظار إلى أهمية الدوافع الاجتماعية والنفسية التي تدخل - كعامل هام - في رفع مستوى الجيوش وحسن تنظيم أفرادها، وزيادة الكفاءة الحربية لها، وارتفاع مستوى الأداء[4] الحربي والانضباط العسكري في صفوفها، على أساس أن الجيش قوة جمعية وطاقة دفاعية يمكن استغلالها إلى أقصى درجات الاستغلال لو أحسن توجيهها اجتماعيًا ونفسيًا، وأمكن القضاء على ما قد يواجه الجنود من مشكلات نفسية أو اجتماعية وأسرية، ولهذا كانت وسائل الإعلام والترشيد والخدمات الترفيهية والاجتماعية والبرامج الثقافية دراسات هامة تدخل في إطار سوسيولوجيا الحرب. ولم يعد اهتمام السياسيين والحكام في البلاد المتطورة قاصرًا على تدريب الجيوش على ما تقوم به العلوم الطبيعية والفنون التكنولوجية من خدمات لاستغلال الطاقة المادية في شئون الجيوش فحسب، وإنما تعدت الاهتمامات ذلك إلى ما تقدمه العلوم الإنسانية خاصة علم الاجتماع والانثربولوجيا - علم النفس من دراسات وبحوث عديدة ذات فائدة هامة في هذا الصدد.

ويعرف علم الاجتماع الحربي بأنه "ذلك الفرع من فروع علم الاجتماع الذي يعتمد على البحوث النظرية والعلمية في دراسة القوات المسلحة كتنظيم اجتماعي، والعلاقات الاجتماعية داخلها وعلاقتها بالمجتمع، والحرب كإحدى وسائل حل المشكلات بين الجماعات والطبقات والأمم وداخل الدولة ذاتها"[٥].

وبهذا تعتبر الحرب وسيلة حل المشكلات الناشبة بين الجماعات والطبقات، الأمر الذي لا وجود له في الجهاد في الإسلام كما سيتضح فيما بعد.

ويؤكد بعض علماء الاجتماع على ما يسمونه بالعنف المنظم Violence organized كعنصر أساسي في تعريف علم الاجتماع الحربي على أساس أن الحرب وسيلة أساسية ومشروعة لتحقيق بعض الأهداف الاجتماعية التي يسعى إليها كل من الفريقين المتحاربين. وانطلاقًا من هذا الفهم فإن علم الاجتماع الحربي يشمل ما يلي:-

١- دراسة المهنة العسكرية Profession of Arms على أساس أن الخدمة في القوات المسلحة سواء كانت إجبارية واختيارية إنما تشكل سياقًا مهنيًا كاملاً له صفة الاستمرار.
٢- أن أعضاء المهنة العسكرية يمرون بتنشئة مهنية معينة، وحراك وظيفي خاص يختلف عن التنشئة المهنية في المجالات الأخرى من حيث طبيعة المهنة، والالتزام الخاص بها وما يلازمها من ضبط وربط تتميز بهما المهنة العسكرية.
٣- يعتمد التنظيم العسكري على قبول ما يسمى بالعنف المنظم كوسيلة مشروعة لتحقيق أهداف اجتماعية خاصة، الأمر الذي يدعو إلى التنسيق والتنظيمات العسكرية المختلفة بهدف تكوين بناء عسكري حربي خاص يضم رجال الجيش المختلفين بما يحقق النصر في ميدان القتال.
٤- وبهذا فإن البناء العسكري ينقسم في داخله إلى عديد من المؤسسات والتنظيمات الخاصة التي يحافظ عليها في وقت السلم استعداد وتحسبًا لما قد ينشأ من صراع مسلح، وبذا لا يكون هناك عنصر البغتة أو المفاجئة.
٥- تخضع التنظيمات العسكرية في البناء الحربي لقادة محترفين في أسلحة مختلفة منها السلاح البحرى والسلاح الجوي وسلاح المشاة وسلاح المدفعية والصواريخ والمدرعات والدبابات وغيرها من الأسلحة ومع أن لكل من هذه التنظيمات الحربية بناءه المميز الخاص به إلا أن كل تلك التنظيمات تدخل في إطار البناء العام المسمى بالقوات المسلحة.

هذا ويهتم علم الاجتماع الحربي بدراسة الأنشطة العسكرية المختلفة لا من حيث علاقتها الداخلية فحسب أى بين تنظيماتها الهرمية المتعددة وما ينشأ عنها من

ترابط وإنما يدرسها من حيث تكوين أنشطتها المختلفة نسقًا[٦] متكاملاً مع المجتمع، وذلك لأن البناء العسكري برمته يعتمد في أداء وظائفه. بل وامتداده بالقوى البشرية كلها على المجتمع الذي يمده بهذه القوى من ناحية، وبالمصادر العديدة التي تتطلبها القوات المسلحة من ناحية أخرى بالطعام والشراب والأموال لشراء المعدات الحربية[٧].

حيث يؤدي الاعتماد المتبادل في علاقة القوات المسلحة بالمجتمع إلى نتائج تختلف باختلاف المجتمعات ذاتها من حيث استقرارها السياسي أو اضطراب الأمن بها، فبينما يكون التعاون بين المدنيين والعسكريين هو السائد في المجتمعات الأولى، فإن الصراعات العديدة بين المدنيين والعسكريين تسود المجتمعات التي يسودها الاضطراب وعدم الأمن والأمان والاستقرار ولما كانت المؤسسات التعليمية في عديد من المجتمعات الراهنة تؤدي بخريجيها إلى الخدمة العسكرية الإجبارية أو الاختيارية في هذه المجتمعات حيث يحد الخريج أنه مرتبط بالتنظيم العسكري فترة معينة أو بقية حياته المهنية. وأنه في حالات عديدة من خدماته الاقتصادية أو الترفيهية أو الصحية يكون تابعًا لمؤسسات تنبثق عن الجيش نفسه، فقد دعا هذا إلى دراسة الجيش كمجال تطبيقي لما يطلق عليه في الدراسات السوسيولوجية المعاصرة "بعلم الاجتماع التنظيمي" والذي تنصب دراسته على "انتشار التنظيمات المعقدة والرشيدة واضطراد نموها كسمة من سمات[٨] المجتمع الحديث التي تميزه عن نماذج المجتمعات القديمة"[٩].

وقد دعا هذا بذل محاولات عديدة للاستفادة من وجهات النظر السوسيولوجية في مجال التنظيم للاستفادة بها في المجال العسكري كتحديد وتصنيف سمات القيادة فيما يتعلق بالقدرة على التحكم في النفس والتكتيك والشرف، والانصياع للأوامر والالتزام بالواجب[١٠] والإخلاص في أدائه، والطرق المستخدمة واختبار الضباط، وتحليل البحوث التي اهتمت بالقيادة العسكرية، والعلاقة بين القيادة والروح المعنوية Morale وهي القدرة على السيطرة على النفس والثقة بها والدافعية القوية على الاستمرار والابتهاج[١١] في جيوش البلاد المتطورة على وجه الخصوص، وعرض ما انتهت إليه هذه الدراسات من ملاحظات تحدد امتياز القادة على أعضاء جماعتهم، وطبيعة القيادة نفسها، مدى اشتراك القادة مع أعضاء الجماعة في بعض الخصائص وتفوقهم في خصائص أخرى.. كما تعرضت الدراسات لموضوعات تتعلق بمدى التوافق أو التكيف Adjusment[١٢] داخل الحياة العسكرية، والاتجاه نحو القيادة، وأساليب الضبط الاجتماعي. واتجاهات الروح المعنوية والعوامل المتصلة بها .. إلى غير ذلك من الموضوعات التى تعد

ميدانًا تطبيقيًا لدراسات "علم الاجتماع التنظيم" هذا هو موضوع اهتمام علم الاجتماع الحربي وتنقلنا هذه النقطة إلى مفهوم الجهاد في الفكر الاجتماعي الحربي الإسلامي.

الجهاد والحرب في الاجتماع الإسلامي :

تشير "الحرب" في معناها اللغوي إلى عدة معان تناولها "ابن منظور" في "لسان العرب" إذ قال إن الحرب تأتي بمعنى "العداوة" كأن تقول "أنا حرب لمن حاربني" أي عدو، كما تأتي بمعنى القتل قال تعالى : "فأذنوا بحرب من الله ورسوله"[١٣] أو بمعنى العصبية كما في قوله تعالى : "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله"[١٤] و"الحربة" الآلة دون الرمح وجمعها حراب، ومن معاني الحرب "الغضب". والخصومة[١٥].

وبهذا فإن كلمة الحرب وما يشتق منها من معان تطلق على أمور تكرهها النفس إشارة إلى ما ينشأ عن الحرب من كوارث وويلات وما يصاحبها من خداع ومباغتة. وخراب ودمار وقتل وتدمير وتشريد البشر. وهذا المفهوم يندرج على مفهوم الحرب عند العرب قبل الإسلام على أساس أنها تشير إلى تسلط قوى على ضعيف للاستئثار بأسباب النعم أو الاستيلاء على موارد الرزق واستباحة الأرض والممتلكات أو القضاء على مواطن العزة في نفوس الضعفاء ليستأثر بها الأقوياء ولم يكن هذا معنى سائدًا لدى العرب قبل الإسلام فحسب وإنما فهمت الحرب بنفس المعنى لدى الشرق القديم واليونان مما يجعل علماء الاجتماع يتناولون دراستها على أساس أنها ظاهرة اجتماعية وجدت منذ فجر التاريخ[١٦] مما دعا بعض الفلاسفة والمفكرين لأن يربطوا بين ظاهرة الحرب وطبيعة الاجتماع البشري.

ففي التراث[١٧] الصيني القديم كان الاهتمام بدراسة ظاهرة الحروب نظرًا لما كانت تقاسيه الشعوب من ويلات الحرب، وحملات الإبادة، وموجات الغزو العمراني، وقد درس أحد الباحثين هذه الظاهرة وكشف عن أسبابها ودوافعها المختلفة واقترح – من وجهة نظره – أفضل الوسائل للقضاء على الحروب التي تهدد العالم بويلاتها وكوارثها ونتائجها الوخيمة.

وكان اليونان القدامى يعبدون "إله الحرب" ويقدمون له القرابين اتقاء شروره وابتغاء مرضاته وإرضاء شهواته.

ويعتبر الفيلسوف اليوناني "هيرقليطس"[١٨] من أوائل الذين اهتموا بدراسة ظاهرة الحرب، كما تحدث عنها "أفلاطون" وندد بما ينطوي عليه من مظالم ووضع شروط لابد من توافرها فيمن يخدم في القوات المسلحة من الشباب أما التدريب

والممارسة والشجاعة والأقدام حيث سوف تعتمد الدولة عليهم في الدفاع عن حرماتها.

وقد تناول العديد من مفكري الرومان ظاهرة الحرب بالدراسة والتقويم والتحليل[١٩] ويؤثر عن المفكر الروماني "سنكا" قوله "الحياة هي الحرب، والحرب هي الحياة الإنسانية".

أما مفهوم الحرب في الإسلام فيختلف عن المفاهيم السابقة لأن الإسلام دين السلام والأخوة والمحبة معًا، وتحمل فكرة السلام أهم أهداف الدين الإسلامي ومقاصده العامة، بل يصرح القرآن الكريم بأن ثمرة اتباع الإسلام اهتداء إلى طرق السلام والاستقامة معا قال تعالى "قد جاءكم نور من الله وكتاب مبين، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم"[٢٠].

والسلام عنصر من عناصر التربية الإسلامية التي تهدف إلى تعميق الإحساس به لا في ضمير[٢١] الفرد فحسب وإنما في واقع المجتمع وبناء الأمة.

وتحية السلام تعد ظاهرة اجتماعية هامة بين المسلمين جميعًا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم حين يحي المسلم أخاه المسلم يقول له "السلام عليكم" ويرد الآخر "وعليكم السلام" فالسلام هنا لغة إسلامية اجتماعية متبادلة يعطي المسلم فيها وجها أخاه تحية الإسلام والسلام معًا، تحية الأمن والأمان، تحية الحب والاطمئنان، كما أنها أخر ما ينطق به المسلم في صلاته عقب انتهائه من التشهد في كل صلاة من صلاواته الخمس يوميًا[٢٢] وعليه فقد نزل الإسلام وهو يدعو في مجال التنشئة الاجتماعية[٢٣] الإسلامية إلى تغيير لا في الناحية العقائدية فحسب، وإنما في طبيعة التعامل بين المسلمين فيما بينهم وبين غيرهم، ولهذا نادى بكبح جماح النفس من الوقوع في حب التسلط أو انتزاع الحقوق من الضعفاء أو بسلبها، والقضاء على نزعة الفوضى التي كانت مدعاة للحرب، والدعوة لإنهاء العصبية القبلية التي أثارت الشقاق والحروب بين العرب، وحرم تحريمًا قاطعًا قتل النفس البريئة، وفي إطار الحفاظ على حرية الأفراد وحفظ أموالهم وتأمينهم علي أعراضهم وأرواحهم نادى عليه الصلاة والسلام المؤمنين فى خطبة الوداع قائلاً : "كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه".

لهذا تغير مفهوم الحرب في الإسلام، وأصبح لها مدلولها الجديد الذي يختلف عن مفهوم الحرب السياسية القبلية فيما قبل الإسلام سواء عند العرب في الجاهلية أو غيرهم كما أشرنا من قبل.

وبهذا تغير هدف الجهاد الإسلامي من المطامع الذاتية إلى المثل العليا السامية، وتحول المفهوم من غاية الوصول إلى عرض الدنيا إلى توطيد ركائز الدين وإعلاء كلمة الله وتدعيم أسس العقيدة وترسيخ الإيمان بالمبدأ الإسلامي.

*الفرق بين مفهوم الحرب والجهاد:

إذا كانت الحرب في مفهومها اللغوي تشير إلى القهر والعدوان والتسلط والقتل، فإن مفهوم الجهاد لغويًا يختلف إذ يشير إلى "الصلابة والمشقة" وفي معناه الشرعي يشير إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من الصلابة على أعداء الله لتحقيق غاية النصر لدينه وإعلاء كلمته في الدنيا، والفوز برضاه وتحقيق ما وعد به جل وعلا في الأخرة "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون، وعدا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله"[٢٤].

وإذا كانت الحرب تفهم على أن غايتها تحطيم طرف آخر لقهره أو التسلط عليه بما يسمى في الفكر السوسيولوجي المعاصر "بالعنف المنظم" سواء كان ذلك بقوة السلاح أو العتاد أو ما يسمى بالحرب النفسية[٢٥] Paychological Warfare وتعني استخدام الوسائل النفسية المتاحة لكسب الحرب وهزيمة العدو مثل العمل على رفع الروح المعنوية للمقاتلين الوطنيين وتدمير الروح المعنوية للأعداء ومثل استخدام الدعاية وبث الحماس لدى المواطنين عسكريين ومدنيين للالتفاف حول قضيتهم التي يحاربون من أجلها وبيان مدى أهمية كسب الحرب وما ينتظر الشهداء من نعيم الأخرة مع التذكير بالقيم والنصوص الدينية والأحداث التاريخية التي تعلي من قيمة الدفاع عن الوطن والعقيدة والمقدسات وحمايتها واستخدام الخطب والأناشيد والأغاني والموسيقى الحماسية فكل هذا وغيره كثير مما يدخل في باب الحرب النفسية.

إذ كانت الحرب بالمعنى المعاصر تشير إلى هذا المفهوم فإن الجهاد في الإسلام يختلف عن هذا المعنى لأنه ينبع أساسًا دفاعًا عن النفس والعقيدة والمبدأ، كما أن الجهاد وإن اتجه بمعناه القريب إلى الجهاد في المعركة بالنفس والمال والعتاد إلا أن جهاد النفس يشمل معنى آخر غير الجود بها في المعركة دفاعًا عن العقيدة ودرء العدو و"الجود بالنفس أقصى غاية الجود" ذلك أن جهاد النفس يعني مغالبتها إذا مالت إلى الشر أو جنحت إلى السوء، أي الانتصار عليها في معركة داخلية غير مرئية، إن الجهاد هنا للنفس لا يقل عن الجهاد بها، بل إن هذا النوع من الجهاد سماه الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يرى بعض المحدثين "جهادًا أكبر" وانطلاقًا من هذا المفهوم فإن من الجهاد جهادًا بالنفس وجهادًا للنفس، الأول في

معركة قتالية هدفها العدوان أو الدفاع عن الدعوة وحرية التدين ابتغاء السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة، أما جهاد النفس فهدفه عدم الخضوع لها أو الانصياع لنزواتها أو شهواتها وملذاتها وميولها العدوانية فالنفس التي انحرفت وغلبتها الرذيلة وجوفها الهوى لا تستطيع مواجهة العدو أو مصارعة المعتدين[٢٦] ومن قبيل هذا الجهاد في الإسلام الجهاد بالكلمة، وفحواه إعلان كلمة حق أو شهادة صدق لوجه الله ومن قبيل هذا النوع من الجهاد الذى يبعد عن المعركة القتالية جهاد الدعوة إلى دين الله تعالى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وعلى أية حال فإن الهدف الأسمى من الجهاد هو إقامة مجتمع مسلم خير تسوده عدالة الإسلام ومساواته والبر والإحسان والتعاون والتضامن والأخذ والعطاء. ومن خلال هذا العرض يتضح التفرقة بين الحرب بمعناها العام كوسيلة صراع مرغوب فيه تعتمد على ما يسميه علماء الاجتماع بالعنف المنظم ابتغاء قهر خصم أو توسع سياسي، وبين الجهاد في الإسلام كظاهرة دفاعية تنبني أساسًا على درء عدوان أو قضاء على ظلم أو نشر كلمة حق أو دعوة لدين الله قال تعالى "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن"[٢٧].

وإذ كانت الحرب لا تفهم إلا من خلال العنف الواضح. فإن الجهاد يتعدى الأمور المحسوسة إلى جهاد للنفس في شهواتها، وحرب لها أمام نزواتها للسيطرة عليها وضبط السلوك الإنساني المنحرف عن جادة الصواب.

*المبادئ الاجتماعية لظاهرة الحرب الإسلامية :

انطلاقًا من مفهومي الحرب والجهاد يتضح أن الإسلام نزل دعوة للخير ووسيلة وهدفًا متخذًا من الرحمة واليسر وإعمال الفكر السليم والنظر العاقل وسائل لتحقيق دعوته ، ويصور لنا القرآن الكريم الهدف والوسيلة من دعوة الحق بعديد من آياته. فيقول عن طبيعة رسالة الرسول "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"[٢٨] وعن كتاب الله تعالى دستور المسلمين "ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون"[٢٩]. وفي وصف الأمة الإسلامية كما أرادها لله تعالى "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"[٣٠].

في ضوء هذا الهدى الإلهي سار عليه الصلاة والسلام داعيًا وهاديًا متخذًا فلسفة الإسلام وتعاليمه وسيلة إلى قلوب الناس فاستجاب وأعرض من أعرض. وفي مسار الدعوة السلمي الهادئ قابلها كبار قريش بالعدوان والقسوة البالغة وتعددت أنواع السب والضرب والإيذاء والعسف والقهر[٣١] وجميع ألوان التعذيب بشتى طرقه إلى التدبير للقتل.

ويحكي لنا التاريخ عن صبر المسلمون أمام عناد الظالمين والكافرين، والرسولﷺ يدعو إلى الصبر وانتظار أمر الله قائلاً "لم أومر بقتال .. لم أومر بقتال" وكاد صبر المسلمين أن ينفذ بعد طول الانتظار حتى نزل الوحي بأولى آيات القتال "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله"[٣٢].

وبهذا فإن الإذن بالقتال كان درئًا لما مني به المسلمون من ظلم وأكرهوا عليه من هجرة، وهو إذن من الله تعالى يقضي به سنة التدافع بين الناس حفظًا للتوازن ورداً للطغيان والبطش والتسلط والظلم والعدوان.

وهنا يبدو الفرق واضحًا في مجال التحليل السوسيولوجي بين الحرب بمعناها العام والجهاد الإسلامي بمعناه الخاص. وهو فرق بين الهجوم والدفاع. بين السطو والتدافع، بين هدف التوسع، وهدف الأمان بين الحرب كأداة للتخريب والفساد والجهاد لحرية العقيدة وتحقيق العدل والمساواة والحرية والديمقراطية بأوسع معانيها.

وفي هذا يقول عز وجل "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين"[٣٣].

وعن أسباب رد المسلمين على الكفار ومواجهة الحرب بالجهاد يقول الله عز وجل "وقاتلوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين، الشهر الحرام بالشهر الحرام، والحرمات قصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين"[٣٤].

وبهذا يتضح أن ظاهرة الحرب في الإسلام شرعت لدرء عدوان ويرد على انتهاك حرمات الله وفتنة للناس فيما يدينون، وقررت الآيات كف المؤمنين عن القتال بنهاية العدوان عليهم أن زوال السبب بزوال المسبب له، كما قررت الحرية الدينية خالصة لوجه الله تعالى غير متأثرة بأي ضغط أو إكراه "لا إكراه في الدين" الأمر الذي ينبغي أن تخرس معه ألسنة الحاقدين على الإسلام الذين يتهمونه ظلمًا وعدوانًا بأنه قام على الإكراه بالسيف والضغط بالقوة، والتأثير بالشدة، وإذا كان علماء القانون الدولي يقررون أن الحرب مشروعة في حالتين:

أولهما : بأن تكون دفعًا لاعتداء على النفس وقع بالفعل وهو ما يسمى بالدفاع عن النفس.

وثانيهما : أن تكون الحرب حماية حق ثابت للدولة تريد أن تستغله دولة أخرى دون مبررًا. أو أى سبب يدعو إلى اغتصابه والاستيلاء عليه إذا كان ذلك ما يقرره الفقهاء والقانونيون بالنسبة للحرب المشروعة فإن الجهاد يضيف إلى

ذلك أنه طريق للدعوة الإسلامية، وليس الجهاد بالسيف وحده، وإنما الجهاد أساسًا بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، والأمر والنهي عن المنكر. وإذا لم يكن الوصول إلى هذا الهدف بالطريق السلمي وكان السيف أداة لفتح الطريق إلى الإسلام أمام الأفراد فإنه لا يكرههم على قبوله لأن الدين الإسلامي دين الحرية ودين العزة والكرامة لبني[٣٦] الإنسان.

ولما كان الإسلام خاتم الرسالات أرسل للناس كافة وأنه ليس عقيدة فحسب وإنما عقيدة وشريعة معًا حيث يضع النظم الاجتماعية العديدة منبثقة منه ومتفرعة عنه، ومهتدية به، وفي شأن الفتنة التي تحدث هزة في البناء الاجتماعي الإسلامي ومنها الردة فقد كانت الردة التي حدثت في عهد الرسول وأبي بكر ذات صفة جماعية هدفها الإساءة إلى الإسلام قام بها اليهود عن طريق اتباع أسلوب الدخول في جماعة الإسلام ثم الخروج منه جماعة كذلك فحرب الردة كانت للقضاء على الفتنة وعلى الحفاظ على إعلاء كلمة الله في الأرض والمحافظة على كيان الأمة الإسلامية.

هذا وقد سبق الإشارة إلى موضوع الجزية والهدف منها هو حماية الدولة لمن يدفعها والدفاع عنه وعن ممتلكاته وصيانة لحريته وكرامته وعزته دون إكراه[٣٧].

*بين الجهاد والرباط :

ويرتبط مفهوم الرباط في العسكرية الإسلامية ارتباطًا وثيقًا بمعنى الجهاد بل يعد جزءاً منه وأسلوب من أساليبه، والرباط يعني الوقفة التي يقفها الجنود المسلمون على الحدود لإخافة جنود الأعداء، والدفاع عن البلاد المرابطة إذن حراسة ويقظة لرد عدوان العدو، الأمر الذي لا يتحقق إلا بمعرفة ما يدور على جانب العدو لمعرفة ما يدور فيه ويحاك به وهو الدور الذي تقوم به "المخابرات" بالتعبير العسكري الحديث والذي يتطلب معرفة المعلومات عن العدو من خلال تخطيط هادف سليم للوقوف على مخططاته وتدابيره ضد البلاد الإسلامية[٣٨] ولما كانت الجندية الحديثة لم تقتصر على الحدود الأرضية وإنما تجاوزت الأرض إلى السماء مسرح الطيران الحربي والصواريخ الموجهة فقد أصبح من الضروري وجود جماعة من المرابطين المسلمين لحماية سماء البلاد ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة طائرات العدو، ومن قبيل هؤلاء المرابطين الجالسون أمام أجهزة الرادار الحديثة لمراقبة تحركات العدو، والقابضون على زمام المدافع المضادة للطائرات في أى موضع كان تحسبًا لأي خطر محدق، وكذلك حراس المرافق العامة. بل إن هؤلاء المسلمين الذين يعملون للحصول على أحدث أنواع الطائرات "طائرات الإنذار المبكر" التي تكشف تحركات العدو واتجاهاته قبل القيام بهجماته، إنما يعد هؤلاء من المرابطين

الذين يعملون على حماية بلادهم والذود عنها طلبا للأمان لا رغبة في العدوان أو الاستيلاء على أملاك العباد أو البلاد والتحكم في مقدراتها.

وبهذا يتسع معنى الرباط ليشمل سائر الذين يقفون موقف الاستعداد لحماية البلاد والدفاع عنها لا في موقع الحدود المتاخمة للعدو فحسب وإنما في أي موقع كان من مواقع الدفاع بعد أن تشعبت وتنوعت وسائل الحرب وأصبحت تشمل الأرض والسماء والبحار، وهو أمر يتطلب الصبر والجلد قال تعالى "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون"(٣٩).

وقوله تعالى "ورابطوا" ينسحب على كل ما من شأنه القوة وغلبة الأعداء، كالطائرات الحديثة والدبابات والصواريخ وغيرها من الوسائل الحديثة في عصرنا الحالي مما لم يكن معروفًا في عهد الرسول عليه السلام. وإعداد وسائل القوة المتاحة إرهابًا للعدو من أهم وسائل الحرب النفسية التي تؤثر في عضد العدو والتي أمر المؤمنين بمقابلتها من العدو بقوة الإيمان وعمق العقيدة، وصفاء اليقين، والرغبة الحازمة في ملاقاة العدو بكل قوة في السلام لوجه الله وأن النتيجة ستكون الظفر بإحدى الحسنيين النصر أو الاستشهاد، إيمانًا من المجاهد أو المرابط بقوله تعالى "قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون"(٤٠).

والأدب العربي حافل بما أنشده الشجعان المسلمون إشعالاً للحماس، وإلهابًا للعزيمة، وإقدامًا في سبيل الله. وكان أبو بكر رضي الله عنه يضع لجنوده دستورًا هو "احرص على الموت توهب لك الحياة" من أجل هذا أمر المؤمنون بالاستعداد للجهاد وإحكام الرباط حفاظًا للنفس، ودرءاً للعدو، وإعلاء لكلمة الله في الأرض.

وعلى أية حال فالرباط يعني أن يكون هناك جند دائم مستمر وعلى أهبة الاستعداد في أي وقت للدفاع عن البلاد إذا هوجمت على غرة وأن يكون الرباط في ثغور البلاد وحدودها وهي مداخل الأعداء ومواضع مهاجمة المسلمين.

وينبغي أن يكون المرابطون رجالاً مزودون بأحدث الأسلحة أسلحة العصر حتى يتمكنوا من سرعة الحركة ومواجهة العدو ورد الكيد ودفع الشر، وأن يكون هؤلاء المرابطون ذوي قدرة على الجمع بين القتال من ناحية وإيصال الأنباء من ثغور البلاد إلى عاصمتها وحواضرها من ناحية أخرى، وهذان الأمران لازالا من أهم مبادئ الفنون العسكرية والاستراتيجية الحربية الحديثة التي سبق الإسلام بها كل فنون الحرب الحديثة.

ومن المعروف أن امتثال أمر الله بإعداد المستطاع من القوة يختلف باختلاف درجة الاستطاعة نفسها في الزمان والمكان(٤١).

وقد خص الله تعالى المرابطين بثواب عظيم لا يقل عن المجاهدين في المعركة ، وذلك لأن فترات الجهاد قصيرة إذا قيست بالرباط الذي لا يتوقف فيه المراقب متأهبا للدفاع وقت قد يطول أو يقصر دون ملل ما. والمرابط يعيش بعيدًا عن أسرته في جو من التقشف والحرمان والخشونة، كما أن طبيعة الحياة داخل البلاد بما تذخر به من حركة اجتماعية مستمرة إنما هي مدينة للوقفة الصامدة الصابرة التي يقفها المرابط مدافعًا عن أمن البلاد واستقرارها فهو يقظ إذا ناموا متأهب . إذا اندمجوا في حياتهم اليومية، قابض على زناد سلاحه، وهم يباشرون حريتهم في غدوهم ورواحهم، ووقفته المتحفزة الصامدة تلك سبب هام من أسباب خشية العدو أن يحتل بلاد المسلمين أو يمسها بسوء. ولهذا فقد شار الرسولﷺ إلى فضل المرابطين في عديد من أحاديثه الشريفة فهو يقول : "رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل"[٤٢].

وقوله أيضًا : "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله"[٤٣].

ومن الأهمية الإشارة إلى أنه ليس كل مسلم يمكن أن يكون مجاهدًا أو مرابطًا قائدًا كان أم جنديًا، لأن للجهاد والمرابطة صفات أساسية لابد أن يتصف بها كل منهما في قمتها الشجاعة والصبر فبهما استطاع المجاهدون التغلب على خصومهم.

وقد كانﷺ المثل الأعلى في الشجاعة والصبر، فقد روى عن على بن أبي طالب رضي الله عنه قوله "إنا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدقة اقتدينا برسول الله فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه" ولهذا كان عليه الصلاة والسلام بصبره وشجاعته النادرة حافزًا للمجاهدين المسلمين على الإسراع إلى الجهاد عن رضا واطمئنان ما دام المصير معروفًا وهو إحدى الحسنين، مما دفع سعد بن معاذ ليقول للرسول ﷺ "والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره إن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك" وليست الشجاعة والصبر وحدهما كل ما ينبغي في أخلاق المجاهدين المرابطين وإنما التقشف والخشونة والبعد عن اللين والترف ذلك لأن الترف والأبهة ورغد العيش هو الذي يفسد الحياة العسكرية لأنها تقوم على الضبط والربط والخشونة والجد والاجتهاد. والمستقرئ لتاريخ الجهاد الإسلامي يدرك كيف وقف المجاهدين الأبطال في غزوة الأحزاب خلف الخندق وقد شدوا الحجارة على بطونهم من قسوة الجوع، وبهذا وصفهم رسل المقوقس حين عادوا إليه بقولهم "ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، جلوسهم على

التراب . وأميرهم كواحد منهم" وبهذا كانوا "أشداء على الكفار رحماء بينهم" بينما يجفل العدو فزعًا ورهبة، فإن الود والرحمة والتصافي تنتشر بينهم، حيث المساواة، فلا فضل لعربيهم على أعجمهم ولا لأبيض على أسود منهم إلا بالتقوى، يستوي بينهم الأمير وغير الأمير، لا فرق بين أبيض وأسود ولا عربي وأعجمي فالكل سواسية في نظر الإسلام.

ومن أهم أخلاق المجاهدين والمرابطين صدق البلاء والإيثار وإنكار الذات والتضحية والفداء والشجاعة والإقدام وفي نفس الوقت العفو عند المقدرة فالمجاهد يجاهد باسم الجماعة لا بذاته، يهمه أن يختفي دوره في ثنايا العمل الجماعي.

*صفات القائد العسكري في الفكر الإسلامي:

وإذا كانت تلك من أهم أخلاق المجاهدين وقائدي المعركة بعامة، فإن من أهم صفات القائد أن يكون على مستوى المسئولية القيادية الكبرى إذ أن خطأ واحد منه قد يؤدي إلى كوارث لا تحصى على الجيش والأمة معًا.

وقد كتب "الهرثمي الشعراني" للخليفة العباسي المأمون "مختصر سياسة الحروب"[٤٤] يتحدث فيه عن أبرز الصفات التي ينبغي أن تكون لدى القائد المسلم فيقول : "أفضل الرؤساء في الحروب أيمنهم نقيبة، وأكملهم عقلاً، وأطولهم تجربة، وأبعدهم صوتًا، وأبصرهم بتدبير الحروب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايد، وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة وتسييرهم أوان المسير، وإنزالهم أوان النزول، وإدخال الأمن عليهم، وإدخال الخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وأن يكون حسن السيرة عفيفًا صارمًا، حازمًا متيقظًا شجاعًا سخيًا.

ويؤكد الهرثمي في الباب ما ينبغي أن يكون عليه القائد المسلم من تقوى الله فيقول "ينبغي لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره، والاستعانة له والتوكل عليه، والفزع إليه، وسألته التأييد والنصر، والسلامة والظفر"[٤٥] أي أن يكون قطن زكي تقي ورع شجاع صابر له خبرة طويلة وعميقة في الجوانب العسكرية.

*الجهاد من منظور علم الاجتماع

إذا كان تحليل علماء الاجتماع لظاهرة الحرب بمعناها العام على أنها ظاهرة اجتماعية تاريخية كامنة في المجتمع الإنساني نشأت بنشأته، واستمدت معه على امتداد التاريخ الإنساني فإن الحرب في الإسلام أو الجهاد لا يعني ذلك، وإنما ينبغي تحليله سوسيولوجيًا على أساس أنه في جانبه القتالي ضرورة دعت إليها

ظروف انتشار الإسلام وصد المشركين لا من الإيمان به فحسب، وإنما عن محاولة الضغط على المؤمنين لردهم عن إسلامهم، والإعداد بكل ما أوتوا من قوة للمكر بالرسولﷺ وقتله، ذلك أن الإسلام دعا أول ما دعا الى السلم "يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة" كما دعا إلى مقابلة السلم بالسلم "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله".

وعليه فإن الإنصاف يقتضي من علماء الاجتماع تحليل الجهاد لا على أنه "عنف منظم" أو قتال مرغوب أو "حرب مفروضة" وإنما على أن الجهاد في الإسلام رغبة في إعلاء كلمة الحق، وترسيخ المبدأ، وتمكين المعتقد، وتحقيق العدالة، ونشر الطمأنينة، والدفاع عن الحق المغتصب ورد الظلم والعدوان لأن الجهاد تحركه الروح الإسلامية الراسخة التي تفوق في مدى أثرها أي أثر آخر مما يجعل تاريخ العسكرية الإسلامية حافلاً بانتصار الفئات القليلة العدد على الجيوش الكبيرة العدد.

وإذا رأى علماء الاجتماع الحربي أن أساس الحرب في الدولة اجتماعي وأن الحرب تخضع للتغييرات السياسية والأفكار الأيديولوجية[٤٦] والمطامع الشخصية، فإن العسكرية الإسلامية لا تنبع إلا من مصدر واحد هو الإسلام دينا، والإيمان عقيدة، والسلام هدفًا، وأن الاستراتيجية الإسلامية دفاعية لا عدوانية، وإن تعاليم الإسلام مصدر قوتها وفعاليتها، وقد لفت هذا كبار العسكريين المعاصرين وخبراء الحرب الدوليين، فالفيلدمارشال مونتجمري يقول عن المجاهدين المسلمين إنهم "قوم لا يقهرون".

وفي كتابه "الحرب عبر التاريخ" يقول "في غضون مائة سنة امتدت الامبراطورية الإسلامية من بحر الأورال إلى أعالي النيل، ومن تخوم الصين إلى خليج بسكاي" ويتحدث بعد ذلك عن الحرب بين البيزنطيين الذين كانوا القوة الوحيدة التي يمكن أن تواجه العرب في مجال الحرب حينئذ وبين الجيش العربي بقيادة القائد الملهم خالد بن الوليد في موقعة "اليرموك" التي اقتصر فيها المسلمون بجيش قوامه خمسة وعشرون ألف جندي ضد جيش البيزنطيين حتى وصلت إلى جبال طوروس. كما سقطت الإسكندرية في قبضة عمرو بن العاص على الرغم من افتقاره لمعدات الحصار والخبرة في فن الحصار[٤٧].

وتحت عنوان "الإسلام محرر الشعوب من العبودية يقول مونتجمري" "إن أهم مميزات الجيوش الإسلامية لم تكن في المعدات أو التسليح أو التنظيم بل كانت في الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة الإسلامية وفي خفة الحركة التي ترجع إلى مهاراتهم في سرعة التحرك بالجمال والخيل وأيضًا في قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لحياتهم الصعبة في الصحراء التي تعودوا عليها، على أن

هناك عوامل أخرى شاركت في نجاح زحفهم غير العادي ذلك الزحف الذي كان عبارة عن نجاح تلو النجاح فقد كان العرب يندفعون نحو القتال ويحركهم أقوى دوافع الإيمان والعقيدة، حيث كانوا يؤمنون إيمانًا راسخًا بالدعوة الإسلامية ويتحمسون لها ويغارون عليها وأدى هذا إلى اعتناقهم مبدأ صلبًا هو "الجهاد في سبيل الله" وقد تغلغل هذا المبدأ في قلوب أتباع الرسول.

وقد وصلت الفتوحات الإسلامية مدى لم تصله في أي عهد سابق، وذلك ليس لأنهم كانوا أكثر عددًا بل لأنهم كانوا يستقبلون في كل مكان يصلون إليه كمحررين للشعوب من العبودية وذلك لما اتسموا به من تسامح وإنسانية وحضارة فزاد إيمان الشعوب بهم "علاوة على تميزهم في نفس الوقت بالصلابة والشجاعة في القتال. وقد أدى كل هذا إلى اعتناق معظم الشعوب الدين الإسلامي، وقد ظلت جميع المناطق التي فتحها العرب في القرن السابع حتى يومنا هذا ماعدا أسبانيا تحتفظ بالدين الإسلامي وكذلك بالعادات[٤٨] والتقاليد والتراث الإسلامي".

ومن الأهمية في التحليل السوسيولوجي لظاهرة الجهاد الإسلامي في عالمنا المعاصر التفرقة بينها وبين ظاهرة الحرب العسكرية التي تشنها الكتلتان أو الكتل المتصارعة مع بعضها البعض من ناحية، ومع دول العالم الثالث بغية العدوان عليها أو الاستيلاء على أراضيها أو الاستحواذ عليها لإدخالها في مناطق نفوذها، أو إخضاعها بالقوة في فلك عملائها الحاكمين لدولة ما من ناحية أخرى. كما يحدث الآن في فلسطين والعراق وتفعله الولايات المتحدة الأمريكية نحو السيطرة على العالم بالقوة وبالتحالف مع بعض الدول الأخرى المستفيدة من هذا العدوان الغاشم على أملاك هذه الدول ومقدرات البلاد.

لهذا فإن على علماء الاجتماع المسلمين القيام بأبحاث ميدانية في صفوف المجاهدين تتناول طبيعة، جماعاتهم ودراسة الروح المعنوية بينهم، وأسس نظمهم الجهادية، وأثر الإيمان في إذكاء الروح القتالية مع عدوهم، ومدى ما يتمتعون به من شجاعة في الحرب وصدق في اللقاء. وتضحية وفداء وفي نفس الإطار التحليلي يمكن التفرقة بين الحرب القتالية الإسرائيلية الشرسة وبين الجهاد الفلسطيني المشروع لاسترداد حق مسلوب، واستعادة وطن مغلوب على أمره، وبنفس الإطار المرجعي التحليلي يمكن النظرة لجهاد الأقليات المسلمة أمام الحكومات الوطنية التي تود البطش بهم، وإرجاعهم عن دينهم، والتسلط عليهم وسلب ممتلكاتهم وتشريد المواطنين وقتل النساء والشيوخ والأطفال الأبرياء وهدم المنازل وتجريف الأراضي وإذا كانت الحرب المتداولة في عصرنا الراهن تنسب على الحرب القتالية أو الحرب الإعلامية بأنواعها وضروبها المختلفة فإن الجهاد لا ينسحب على القتال

فحسب، وإنما تتناول الجهاد باللسان والمال؛ ولهذا يرى معظم الباحثين المسلمين أن تسبق الدعوة الجهاد، أي الدعوة إلى التعايش السلمي وعدم الجور على حقوق المسلمين، فإن أبي المعتدون واستمروا في كيدهم كان الجهاد بالقتال حكما بين المسلمين والمعتدين وإن هذه الحرب تدخلها البلاد مضطرة لرد العدوان والظلم ولوقف الاستيطان الإسرائيلي على أراضي الغير بالقوة.

وإذا كان الدفاع عن المظلومين الذين يعيشون تحت سلطان دولة جائرة غير مسلمة أمرًا واجبًا فإن هذا يستدعي أن يهب المسلمون من كافة بقاع الأرض لنجدتهم ورفع الضيم عنهم، الأمر الذي يوضح بجلاء سبب تضامن المسلمين في كل دول العالم اليوم مع إخوانهم المجاهدين الأفغانيين وفي فلسطين المختلة وفي العراق السليب.

قال تعالى "انفروا خفافًا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسهم في سبيل الله ذلكم إن كنتم تعلمون"[٥٠] وفي تفسير هذه الآية أورد المفسرون كافة أفراد المجتمع الإسلامي شرحًا لقوله تعالى خفافًا ونقالاً، فالشباب وهم خفاف والشيوخ وهم ثقال، والركاب وهم خفاف، والمشاة وهم ثقال، والفقراء وهم خفاف، والأغنياء وهم ثقال، والأصحاء وهم خفاف والمرضى وهم ثقال، وغير المعيلين وهم خفاف، والمعيلون وهم ثقال.[٥١] وبهذا شمل الجهاد الأمة جميعًا كل بما يقدر عليه والجهاد بالمال ذو أهمية كبيرة إذ ينفق لشراء العتاد والأسلحة استعداد للجهاد القتالي من جهة، كما ينفق منه على أسر المجاهدين والمستشهدين منهم من جهة أخرى.

هوامش ومراجع الفصل الخامس

١- ظاهرة : هي ما يمكن إدراكه أو الشعور به وما يعرف عن طريق الملاحظة والتجربة والظواهر منها الطبيعي والكوني والنفسي والاجتماعي : مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، ١٩٨٣م ص١١٤.

٢- السبب : كل ما ينشأ عنه أثر أو أية حركة أو تغير أو الحالة التي تسبق بالضرورة أي حادث أي أن تتابع الحوادث محدود ومحكوم بالعلاقة بين السبب والنتيجة. وتفترض العلة أن الحوادث لا تقع بطريقة عشوائية أو بمحض الصدفة ولكنها مترابطة بطريقة واحدة. فحدوث إحداها يؤدي إلى حدوث الأخرى : أحمد ذكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٨٦م ص٥٤.

٣- نظرية Theory هي جملة تصورات مؤلفة تأليفا عقليا تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات أو فرض علمي يمثل الحالة الراهنة للعلم ويشير إلى النتيجة التي تنتهي عند مجهود العلماء في حقبة معينة من الزمان : مراد وهبة ويوسف كرم، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، ط٢، القاهرة، ١٩٧١م ص٢٣٩.

٤- الأداء Performance : هو إنجاز يتم باستخدام الفرد لإمكاناته الجسمية أو العقلية أو النفسية : مجمع اللغة العربية، معجم علم النفس والتربية، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ج١، ١٩٨٤م، ص٧٨.

٥- أحمد إبراهيم خضر، علم الاجتماع العسكري، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م ص٤٠.

٦- النسق : مجموعة مصالح ونواحي نشاط متصلة بعضها ببعض ويفترض في ذلك وجود نظام مكون من أجزاء أو مظاهر في ترتيب منظم يتميز بالتنسيق في العمل والتكامل في البنيان : أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص٤١٩.

٧- أحمد إبراهيم خضر، المرجع السابق ص٤٢.

٨- السمة : مظهر ثابت نسبيا من مظاهر السلوك أي ترتبط السمة بنوع واحد معين من المواقف أو المعايير الاجتماعية كإطلاق سمة أناني أو شره أو شجاع على شخص ما : أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ص٤٢٩.

٩- علي عبد الرزاق جلبي، قضايا علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧٩، ص٢١٩، ٢٤٩.

١٠- الواجب Duty تدل كلمة الواجب بمعناها العام على أى أفعال تفرضها قواعد مقبولة تحكم أية ناحية عامة من نواحي الحياة الاجتماعية أو أي عمل تعاوني. أما المعنى الضيق فيستخدم للدلالة على الأفعال المطلوبة من الفرد الذي يناط به وظيفة أو دور ثابت يجب أن يؤديه في الجماعة : أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص١١٩.

١١- عبد المنعم الحفني، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٧٨م ص٤٨٩.

١٢- التوافق أو التكيف Adjusment يستخدم هذا اللفظ بمعنى التكيف على الإطلاق، ولكن يحسن قصره على نوع من التكيف الاجتماعي أو النفسي الذي يقضي من الشخص حين يواجه مشكلة خلقية أو يعاني من صراعات نفسية أن يغير من عاداته واتجاهاته لكي يتلائم مع الجماعة التي يعيش في كنفها: مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣، ص٥٧.

١٣- سورة البقرة آية ١٧٩.

١٤- سورة المائدة آية ٣٣.

١٥- ابن منظور، قاموس لسان العرب، دار المعارف، القاهرة بدون تاريخ، مادة حرب.

١٦- التاريخ : وصف الحوادث أو الحقائق الماضية وكتابتها بروح البحث الناقد عن الحقيقة الكاملة : محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي، مبادئه ومناهجه، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ١٩٦٣م، ص٧٩.

١٧- التراث : الذي نعنيه هو ما خلفته أجيال من العلماء العرب من ألوف الكتب والرسائل والمؤلفات التي لا يزال أكثرها موجوداً في مكتبات العلم في الشرق والغرب على السواء : عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه ، دار المعارف، القاهرة ط٥، ١٩٩٠ ص٩.

١٨- هرقليطس Heraclitus عاش بين عامي (٥٤٠ – ٤٨٠ ق. م) فيلسوف يوناني. قال بأن النار هي الجوهر الأول : منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٦م ص٤٤.

١٩- تحليل Analysis أى رد الشئ إلى عناصره المكونة له مادية كانت أو معنوية ويستعمل في الكيمياء والعلوم الطبيعية كما يستعمل في الذكاء وغيره من الظواهر النفسية : مراد وهبة ويوسف كرم ، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، ط٢، القاهرة، ١٩٧١، ص٤٨.

٢٠- سورة المائدة آية ١٥ – ١٦.

٢١- الضمير : مصطلح تحليل نفسي يقصد به أحد جانبي الأنا الأعلى ويقابل الجانب الآخر منه وهو الأنا المثالي والضمير يوجد بالفرد كمكون من مكونات شخصيته ويدعو لانضباط السلوك وعدم الخروج على القواعد والأعراف والقيم الأخلاقية التي تواضع المجتمع عليها ممثلاً في الوالدين أو من يقوم مقامهما والضمير يثيب الشخصية بالراحة النفسية ويعاقبها بوخز الضمير وتأنيبه إن خرقت تلك القواعد. والضمير يمارس نشاطه داخل الشخصية على المستويين الشعوري واللا شعوري : فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار سعاد الصباح، ط١، الكويت، ١٩٩٣م ص٤٤٥.

٢٢- محمد جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية، دار الاعتصام . القاهرة ص٢٨.

٢٣- التنشئة الاجتماعية Socialization يقصد بها العملية التى يكتسب الطفل بموجبها الحساسية للمثيرات الاجتماعية، كالضغوط الناتجة من حياة الجماعة والتزاماتها وتعلم الطفل كيفية التعامل والتفاهم مع الآخرين وأن يسلك مثلهم في العملية التي يصبح الطفل بموجبها كائنا اجتماعيًا وتتضمن هذه العملية العادات الاجتماعية، والاستجابة للمثيرات الرمزية كما تعرف أنها العملية التي تساعد الفرد على التكيف والتلاؤم مع بيئته الاجتماعية. ويتم اعتراف الجماعة به ويصبح متعاونًا معها وعضوا كفوأً فيها : عبد الرحمن العيسوي، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص١٨٤.

٢٤- سورة التوبة آية ١١١.

٢٥- فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار سعاد الصباح – الكويت، ١٩٩٣م ص٣٠١.

٢٦- أحمد شلبي، الجهاد والنظم العسكرية في الفكر الإسلامي، ط٢، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م، ص٢٣.

٢٧- سورة الأنبياء آية ١٠٧.

٢٨- سورة الأعراف آية ٥٢.

٢٩- سورة آل عمران آية ١٠٤.

٣٠- سورة البقرة آية ١٢٨.

٣١- القهر Boundary هو فرض النظام والضبط على سلوك الأشخاص والجماعات عن طريق القوة أو العنف أو التهديد وهناك أشكال مختلفة للقهر مثل القهر الفيزيقي والصور الشرعية وغير الشرعية ويرتبط هذا المفهوم بفكرتي القوة والسلطة في العلوم الاجتماعية محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م، ص٦٦.

٣٢- سورة الحج آية ٢٩ – ٣٠.

٣٣- سورة البقرة آية ١٩٠.

٣٤- سورة البقرة آية ١٩٣ – ١٩٤.

٣٥- محمد جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية، ص٤١.

٣٦- عبد الحميد متولي، مبادئ نظم الحكم في الإسلام، ط٤ ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٨، ص١٨.

٣٧- المرجع السابق ص٥١ – ٥٥.

٣٨- محمد جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن والمقاومة الجاسوسية، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٠م، ص٨٠.

٣٩- سورة آل عمران آية ٢٠٠.

٤٠- سورة الجمعة آية ٨.
٤١- عبد الله بن محمد بن حميد، الإسلام يأمر بالقوة، مجلة الحرس الوطني، العدد ١ السنة الأولى، الرياضي ١٩٩٨ ص٥٩.
٤٢- رواه الترمذي والنسائي.
٤٣- رواه الترمذي.
٤٤- إبراهيم النحاس، مختصر سياسة الحروب الهرشمي، مجلة الحرس الوطني، العدد الثاني، السنة الأولى، ١٤٠٠، ١٩٨٠م الرياض، ص٩٧ - ٩٩.
٤٥- أحمد شلبي، الجهاد والنظم العسكرية، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص٨٦ - ٨٧.
٤٦- الأيديولوجية Ideology هي ناتج عملية تكمن نسق فكري علم يفسر الطبيعة والمجتمع والفرد ويطبق عليها بصفة دائمة. وتتشكل أيديولوجية كل جماعة بيئتها الجغرافية والاجتماعية ونواحي نشاطها : أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٠٦.
٤٧- محمد جمال الدين محفوظ، مرجع سابق، ص٤٧ - ٤٩.
٤٨- العادة : استعداد مكتب دائم لأداء عمل من الأعمال - حركيًا كان أم عقليًا أم خلقيًا - بطريقة آلية مع السرعة والدقة والاقتصاد في المجهود، كعادة السباحة وعادة ضبط النفس وعادة حصر الانتباه في القراءة أو النظافة أو عادة التفكير بالأسلوب العلمي : أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ص١٢٢.
٤٩- أحمد شلبي، الجهاد والنظم العسكرية، ص٨٥.
٥٠- سودة التوبة آية : ٤١.
٥١- الزمخشري، تفسير الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط٢، القاهرة، ١٣١٨ هـ.

الفصل السادس

فلسفة الجهاد في الفكر الإسلامي

إن الجهاد الإسلامي فرض إلهي على المسلمين وحاملي راية القرآن وللجهاد شرعية وموجبات وسلوكيات ومنهج وفلسفة استخدمها المسلمون أثناء تأدية واجبهم المقدس وسوف نلقي الضوء على سلوكية الغزاة الصليبيين أثناء غزوهم للبلاد العربية الإسلامية على اعتبار أن شعارهم الذي استتروا خلفة كان دينيًا وباعتبار أنهم ادعوا بأن غزوهم لبلاد الإسلام العربية هو دفاع عن المسيحيين المضطهدين وقتال ضد أعداء المسيح والمسيحية ففلسفة القرآن الكريم تدعو إلي التوحيد ورفع الظلم عن الفقراء والدفاع عن مصالحهم بينما منهج الصليبيين يدعو إلى الشرك والوثنية وتجسيد الظلم وتطبيقه فالفرق بين الدعوتين هو فرق في الجوهر[1] والتطبيق والسلوك فمن حيث المبدأ قام المنهج الإسلامي بتطبيق تعاليم الله تعالى التي لا يلحقها التحريف أو التغير أو التبديل فالآيات القرآنية نصت على وجوب الجهاد لرفع الظلم عن الذين أخرجوا من ديارهم من غير حق وتحرير الأرض العربية الإسلامية من العدوان بينما جائت دعوة البابا والكنيسة الصليبية في أوربا إلى القتال ضد المسلمين الذين حسب زعمهم اضطهدوا المسيحيين وتشمل هذه الدعوة تزين أرض الشرق في عين الغزاة حتى يطمعون في خيراتها تلك التي سوف ينعم بها كل من يحمل السيف ويغادر أوربا إلى الشرق بينما هم يدعون الاضطهاد فإن المسيحية في أرض فلسطين والمشرق هي منبع الخير الذي أفاض على العالم بالمحبة والتسامح إن المسيح هو نبي مثله مثل محمدﷺ وداود وسليمان وهارون وغيرهم من الرسل والأنبياء والإسلام. لا يفرق بين رسل الله وطالما أن المسيحية ظهرت في فلسطين أرض المقدسات الإسلامية فإن المسلمين انطلقوا لتحريرها من أيد الغزاة الرومان المحتلين ليعيدوا إلى شعبها العربي نصاعة مبادئه وقيمة التي جاء بها المسيح عليه السلام وحرفها اليهود والرومان وجعلوها ديانة وثنية أشبه بالبراهمية والهندوكية والمسلمون أحق الناس بالدفاع عن المسيحية الحقة. وليس من حق الغربيين مجرد الادعاء بأنهم حماة المسيحية إنهم لا يرتبطون بالمسيحية أى ارتباط لأنهم ليس لهم علاقة بدين سماوي ولا بأرض عربية ولذلك جاء شعارهم في الحرب ومنهجهم في التطبيق مخالفًا لأبسط شريعة في الوجود ولأبسط قوانين المحبة والأخوة التي طرحها السيد المسيح عليه السلام، والمتصفح للتاريخ وفلسفة الرسولﷺ الحربية فإذا نظرنا إلى دخولهﷺ إلى مكة وماذا فعل بأهل قريش الذين عذبوه وحاربوه طوال حياته وكذبوه وقاطعوه وحاولوا اغتياله مرات عديدة وشنوا عليه الحروب في بدر وأحد والخندق ورغم ذلك كله قال لهم أذهبوا فأنتم الطلقاء فهذه هي فلسفة الإسلام من بدايته وعلى نهجها صار المسلمون. وبنظرة فاحصة لفتح القدس بسبب قداستها عند المسلمين واعتبارها ثالث مكان يحج إليه المسلمون،

ذهب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه إليها وتسلم مفاتيحها ودعى للصلاة في كنيستها فرفض حتى لا تكون حجة للمسلمين ليقيموا فيها مسجدًا وأقام لهم عهدد المعروف وأمنهم على أنفسهم وكنائسهم وأموالهم وترك لهم حرية العبادة المطلقة وبمقابل ذلك طلبوا منه ألا يساكنهم اليهود فأقرهم على ما يطلبون لهم يقتل نفر من أهل القدس لا من حاميتها العسكرية ولا من المدنيين وساد السلام والوئام أرضها وعم الخير فيما حولها وفتح المسلمون دمشق وحمص وحلب ومصر والمغرب والأندلس ووصلوا أسيا بكل أقطارها. فهل أرخ المؤرخون المنصفون حادثة واحدة تم فيها ذبح الأطفال الأبرياء والناس الآمنين؟ هل سجل التاريخ فتحًا واحدًا للمسلمين تم فيه قتل للنساء والشيوخ والأطفال؟ ثم للنظر كيف تم فتح بلاد الإسلام على أيدي المتسترين وراء الدين من صليبي أوروبا مستعمريها فعندما دخل الغزاة الصليبيون باسم الدين مدينة أنطاكية نهبوها كليًا وتمامًا وقد وصف أحد قادتهم ومؤرخيهم دخولهم إليها بقوله :-

ليس بمقدورنا أن نقول كم من الغنائم أخذت إجمالاً من أنطاكية فإذا تصورتم بأقصى ما يسمح خيالكم فاحسبوا أكثر من ذلك.

وقتلوا المئات من سكان المدينة وانتشروا بسيول الدماء التي سفكوها ولم يفرقوا بين مسيحي أو مسلم، وقد امتلأت جميع الساحات بجثث القتلى بحيث أن أحدًا لم يكن بوسعه أن يتواجد هناك بسبب الرائحة الكريهة القوية ولم يكن بوسع أحد أن يمر في الشوارع إلا بالسير على الجثث ويصف مدون الأخبار الأرمني "حتى الرهاوي" المذابح التي اقترفها الصليبيون في انطاكية بالمجزرة الرهيبة[٢] هذا ما كتبه المؤرخ الروسي "ميخائيل زابوروف" إنها شهادة واحدة من الذين لم يتخلوا عن مسيحيتهم أو انتمائهم إلى روسيا المسيحية.

وحين استمر الغزو الصليبي باسم الدين وصل إلى القدس حاصرها طويلاً وتكبد بها أفدح الخسائر لاسيما من هؤلاء العرب مسلمين ومسيحيين الذين كانوا يدافعون عن المسجد الأقصى والكنيسة، وقد وصف ميخائيل زابوروف دخول الصليبيين "في كتابه الصليبيون في الشرق" إلى القدس بهذه الكلمات فقال :-

إن "مخلصي قبر السيد المسيح" الذين تملكهم التعصب الأعمى وتحرقوا للانتقام من "الكفار" الذين تسببوا لهم بمثل هذا القلق والاضطراب وضراوة همجية على السكان في المدينة، إن حمامات الدم وعمليات النهب الشاملة المقترفة في القدس قد حجبت الحكام والوحشيات المقترفة في انطاكية يقول مدون أخبار إيطالي :-

عندما دخل حجاجنا الى المدينة ساقوا وقتلوا المسلمين حتى هيكل سليمان بالذات وقد تجمع المسلمون فيه وخاضوا ضدنا معركة في منتهى القساوة طوال اليوم كله ولذا سال الدم في الهيكل كله وأخيرًا تغلب رجالنا على الوثنيين واعتقلوا عددًا من الرجال والنساء في الهيكل وقتلوا منهم قدر ما أرادوا.

وفي المسجد الأقصى ذبح الصليبيون مالا يقل عن (١٥) ألف شخص وهذا العدد يذكره على كل حال شهود العيان اللاتين، كان "تنكر يده وغودفروادى بويون" السباقين في اقتحام المسجد الأقصى ويعترف المؤلف المذكور بما يلي:-

"أما أي قدر من الدماء سفكنا في ذلك اليوم فمن المشكوك فيه أن يكون من الممكن التصديق".

والمجازر وعمليات النهب والسلب تخللتها الصلوات المحمومة أمام "قبر السيد المسيح"! ومن الصلوات كان الفرسان ينتقلون في الحال إلى الأعمال الدموية كانوا يقتلون الجميع من رجال ونساء وأطفال وشيوخ وأصحاء ومقعدين، ولم يكن ثمة مكان كان بوسع المسلمين أن يتحاشوا فيه القتلة وكانوا يسحقون رؤوس الأطفال الرضع على الحجارة[٣] هكذا كانت دعوة الصليبيين حاملي لواء الصليب ويخفون وراءه مطامعهم وفتوحاتهم الدموية فأين ذلك من فتح المسلمين للقدس أو غيرها من المدن؟ أين ذلك من رحمة المسلمين وتسامحهم واحترامهم لأصحاب الديانات الأخرى؟

يقول ستندال الكاتب الفرنسي "نحن الذين كنا برابرة تجاه الشرق عندما عسكرناه بحروبنا الصليبية ونحن مدينون بالدنيا من نبل في أخلاقنا إلى هذه الحروب وعرب أسبانيا.

لم يكن المسلمون إرهابيين عندما كانوا يدخلوا البلاد وينشرون فيها الدعوة الحقة ولم يقل التاريخ يومًا أنهم عقدوا محاكم تفتيش لإعدام أصحاب الديانات الأخرى، ولننظر ماذا فعل القوط الأسبان عندما فتحوا الأندلس قادمين من الشمال: راحوا يفتحون البلاد ويطردون المسلمين ويقيمون المذابح في كل القرى والبلدان، وبعد أن استقر لهم وضع احتلال الأندلس أقاموا محاكم التفتيش للتفتيش عن المسلمين وتعدمهم، وعندما أرعب المسلمون كثيرًا صاروا يغيرون أسماءهم العربية الإسلامية بأسماء إفرنجية لكن الفرنج لم يصدقوا ففرضوا على الناس أن يكشفوا عن عوراتهم حتى يتبين الختان الذي يختص به المسلمون دون النصارى فإذا ما تبين لهم أن الشخص مختون ألقي إلى المفاصل والإعدام بغير شفقة ولا رحمة وبغير حس إنساني ولا شعور بشرى أو آدمي على الإطلاق وكم أقيمت للمسلمين مقابر جماعية حتى بلغ بالإفرنج الحقد أنهم دفنوا الجرحى قبل أن

يموتوا دفنوهم أحياء مع الأموات وتلك أقسى درجات الوحشية والبربرية التي لم يشهد مثلها التاريخ.

لقد أدرك المفكرون والفلاسفة والباحثون الغربيون القدماء والمعاصرون أدركوا جميعًا الفرق بين الفتح الإسلامي المنزه وبين الغزو الإفرنجي الإجرامي الوحشي الذي يخلو من الرحمة والشفقة وعتق الناس من المعبودية لقد قال في ذلك الكاتب الفرنسي أناتول فرانس والحائز على جائزة نوبل عام ١٩٢١: سأل M.Dubois مرة السيدة Joziere عن اليوم الذي كان الاشأم في التاريخ فقال لها إنه يوم معركة بواتييه عندما تراجع العلم والفن والحضارة العربية سنة ٧٣٢ أمام البربرية الفرنجية. وهذه شهادة لا يستهان بها فهي دليل قاطع وبرهان ساطع إن الدين الإسلامي دين حضاري لنتصور جميعًا غاية الجهاد وسلوكيته عند المسلمين ولنتصور ما يسميه الإفرنج دفاعًا عن المسيح ولنتصور السلوكية التي جبلت بطبائعهم ونفذوها إجرامًا وقتلاً واغتصابًا في البلاد الإسلامية.

لقد قاد المسلمين رسول بعثه الله رحمة للعالمين ومن ثم قادهم رجالاً تربوا في مدرسة الرسول ﷺ وعلى يد المعلم العظيم نبيهم، فكان خير مثال لمن يوجه الأمم ويوجه المجاهدين، تعلم المسلمون أن لا يقتلوا صبيًا ولا امرأة ولا عجوزًا وأوصاهم أبو بكر رضي الله عنه أن يتجنبوا الرهبان في الصوامع والكنائس والأديرة وعليهم أن يحترموا رجال الدين لكافة الديانات المسالمة.

ويقود الصليبيين كنيسة وبابا يطبع لهم صكوك غفران ليدخلهم الجنة يدعوهم لقتل كل مسلم لأنه أي القتل عما مقدس لدى البابا ولدى الكنيسة، لم يوصهم بتجنب الأطفال والنساء والشيوخ بل أمرهم بقتل الجميع ونفذوا ما أمرهم به فقتلوا في القدس وحدها ٧٠ ألفًا من النساء والأطفال والشيوخ ولم يسلم من بطشهم الرضع والمقعدون. عندما فتح المسلمون الشرق صنعوا حضارة بلغت أوجها ومن خلال دينهم العظيم أبدع المفكرون والفلاسفة والأطباء فخرجوا ابن سينا وابن النفيس وغيرهما، لم يدخلوا البلاد ليهدموا حضاراتها بل صنعوا لها مجدًا حضاريًا عظيمًا. انظروا إلى مدرسة نيسابور وانظروا إلى المدارس في شمال إيران انظروا إلى بخاري وماذا خرجت وإلى طشقند وسمرقند وخراسان لننظر جميعًا إلى العدالة الاجتماعية العظيمة، تعني تعاون الأفراد في مجتمع متحد يحصل فيه كل عضو على فرص متساوية وفعلية لكي ينمو ويتعلم لأقصى ما تتيح له قدراته[4] العظيمة الفقير يأخذ من بيت مال المسلمين حتى لو كان على غير دين الإسلام والفلاحون يعملون في حقولهم دونما رق أو عبودية بل إن الفاتحين المسلمين خلصوهم من الرق والعبودية وظلم الإقطاع، ولو كان الإسلام فتح الدنيا بالسيف، ولو كان الإسلام دين

قمع لما تقدمت الأمم وبلغت أقصى درجات رقيها الحضاري الذي طاف العالمين وانتشر شرقًا وغربًا وعجب به الغرب ودرسوه في جامعاتهم ومعاهدهم. ولنظر إلى الغازين الصليبيين الذين رفعوا الصليب وجاءوا يفتحون الشرق لننظر إلى ما جروه على بلاد المسلمين والعرب. يقول ميخائيل زابوروف: "لقد تسبب الغزاة الصلبيون بالانحطاط لمراكز الشرق الأدنى المزدهرة اقتصاديا وثقافيا. إن الحملات الصليبية كانت بالنسبة لبلدان شرق المتوسط كارثة حقيقية ذلك أن الصليبيين حملوا إليها الخراب في سياق عشرات السنين واجتاحوا ونهبوا المدن والقرى في آسيا الصغرى وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر واستحقوا عن جدارة فائق كره وازدراء شعوب الشرق الأمامي[٥].

لم تجلب الفتوحات الإسلامية تدميرًا لأي بلد أو لأي مجتمع بينما قام الصليبيون بتدمير بلاد العرب المسلمين ولم تقف شهواتهم عند الحد هذا بل سال لعابهم على دولة بيزنطة المسيحية التي ساعدتهم في الحملات الأولى كل المساعدة على احتلال الساحل العربي المسلم فقد قاموا في عام ١٢٠٤ بسحق بيزنطة وسيادة الإقطاعيين الأوربيين الغربيين والتجار الأوربيين الجنوبيين على مقدرات الدولة البيزنطية وكثيرون اعتبروا أن ثمارًا مشؤومة نتجت عن حروب الصليبيين في المنطقة، فالامبراطورية البيزنطية التي تعرضت للنهب والاجتياح لم تستطع يومًا رغم انبعاثها كدولة مستقلة بعد مرور بضعة عقود من السنين أن تستعيد مواقعها الاقتصادية والسياسية السابقة.

وهكذا اضطلعت الحملات الصليبية بالإجمال على الصعيد التاريخي العالمي بدور سلبي ولم تضطلع بدور إيجابي أبدًا.

خلاصة الفصل

لقد أصبح واضحًا ومسلمًا به أن فلسفة القرآن في الجهاد هي منهج متكامل لا ينقص ولا ينتقص منه وإذا كانت الأمة الإسلامية قد تخلفت عن نشر دين التوحيد والدفاع عن الأراضي الإسلامية وتحريرها فإن تبعة ذلك تقع عليهم تحديدًا ولا تقع على منهج الإسلام كما جاء في القرآن الكريم. فالجهاد ركن أساسي من أركان الإسلام وهو عبادة مثل العبادات به يتاجر المؤمن بالأخرة ويستغني عن التعلق بالدنيا وغاياتها المادية، إنه طريق دنيوى يصل بالمؤمن إلى غاية سامية نبيلة هي بالدرجة الاولى غاية رضاء رب العالمين ومن ثم بتجسيد فلسفته القرآنية على أرض الواقع، ويبرز هذا المنهج في تغيير المنكر بشتى أشكاله، وعن طريق اليد والقوة. وإن أبواب الجهاد الكثيرة التي تعلمها المسلم من خلال القرآن هي أبواب عملية للتغيير، تنطلق من الجهاد كدائرة كبرى تشمل جهاد النفس والهوى والشهوات

وتشمل الجهاد في نشر العدالة الإنسانية الإسلامية السامية في كافة المعمورة وتتجه بكل قوتها إلى رفع الظلم الفكري والنفسي والاجتماعي عن كاهل الناس وعقولهم.

إن الجهاد عقيدة متكاملة تظهر المعنى المراد منها وتظهر دوافعها وأسبابها وتظهر بالتالي كيف يعامل المسلم المجاهد الناس والحيوان والزرع والمدن والشعوب برمتها بالحسنى وبالموعظة الحسنة. ولما كانت كذلك فقد كان رسول الله ﷺ أول مطبق لها عملا وقولاً. لم تكن هذه العقيدة عدوانية في ساعة من الساعات لقد ظلم المسلمون وأخرجوا من ديارهم وعذبوا بالسياط والقيود ومازالوا كذلك يقيدون ويضطهدون ويطردون من ديارهم بغير حق ، فكانوا في السابق أشداء على الظلم وأشداء على من يحتل بلادهم ومن المفترض أن يكونوا كذلك اليوم وإلا فهم الآن ينحرفون عن القرآن والرسول ﷺ وصحابته وينحرفون عن أسمى معاني الرجولة والكرامة والعزة. لقد جاءت فلسفة الجهاد القرآني لتعلم المسلم أن لا يكون تابعًا لدولة أو منهج سوى منهج الإسلام الذي علمه أن لا يكون مدافعا عن التعاون مع اليهود المحتلين والاستعمار الغربي، علمه أن يكون هو محور الكون في سيادة الحق والعدالة ورفع الظلم، علمه أن يكون سيدًا في وطنه وأمته وسيدًا في اختياره، وسيدًا في بناء حضارته وثقافته العظيمة. إن التنازل عن الحق تجسيد للضعف ولموت روح الجهاد في النفس المسلمة وهذا ما سعت له كل أوساط الأعداء للأمة الإسلامية، فالجهاد كما طرحه القرآن الكريم ليس عدوانا وليس تهاونا إنما هو ضد التنازل وضد الذل والمهانة والعبودية والاستيلاء على حقوق الغير بالقوة.

مراجع وهوامش الفصل السادس

١- جوهر : ما قام بنفسه. فهو متقوم بذاته ومتعين بماهيته. وهو المقولة الأولى من مقولات أرسطو، وبه تقوم الأعراض والكيفيات ويقابل العرض : مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٦٤.

٢- ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٠، ص٩٣.

٣- المرجع السابق، ص٩٤.

٤- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ص٣٨٩.

٥- ميخائيل زابوروف، المرجع السابق. ص٣٣٩.

ثبت بالمصطلحات العسكرية في القرآن الكريم

(أ)

أفـق :

(وهو بـالأفق الأعلى) النجم : ٧ فكلمة الأفق من مصطلحات الجغرافيا العسكرية : يقال منظر أفقي ومقطع أفقي عند رسم الخرائط، ويستعمل في التدريب العسكري، فيقال أنظر إلى يسار خط الأفق .. وهو منتهى ما تراه العين كأنما التفت إلى السماء.

(ب)

بغت :

(فأخذناهم بغتى وهم لا يشعرون) الأعراف : ٩٥ ويقصد بالمباغتة المفاجأة فيقال باغت الجيش الأعداء أى هاجمه في مكان أو زمان أو بأسلوب لا يتوقعه، والمباغتة من أهم مبادئ الحرب ومن أقوى العوامل وأبعدها أثرًا في الحرب وتأثيرها المعنوي عظيم جدًا حيث يكمن فيما تحدثه من شلل في تفكير القائد الخصم.

(ت)

تـاه :

(يتيهون في الأرض، فلا تأس على القوم الفاسقين) المائدة : ٢٦ وتاه العسكري أي ضل طريقه ويقال تاهت مفرزة الاستطلاع ضلت طريقها ولم تعد إلى قواعدها.

(ث)

ثخـن :

(حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) محمد : ٤ يقال أثخـن الجيش في الأعداء أي كبدهم خسائر فادحة في الأرواح والأموال.

(ج)

جبه :

(يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم) التوبة : ٣٥ ويقصد بالجبهة من الناحية العسكرية عدة مناطق حركات داخلة في حدود جغرافية معينة ومنطقة الحركات هي قسم من ساحة الحركات، وساحة الحركات : هي الساحة التي يتمكن أحد الخصمين من القتال فيها وهي قسم من ساحة الحرب هي جميع البلاد التي يحتمل أن يتقاتل فيها الفريقان المتخاصمان في البر والبحر .

(ح)

حـاد :

(وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد) ق : ١٩ حاد عن الشئ مال عنه ويقال حاد عن الطريق. والحياد معناه عدم الميل إلى أي طرف من الأطراف

المتخاصمة أو عدم الاشتراك في الحرب. يقال سويسرا دولة محايدة .. والحياد الإيجابي هو الابتعاد عن الحرب والتعاون لإقرار السلام. والحياد المسلح هو عدم الاشتراك في القتال مع تقوية الجيش عدداً وعدة ليكون مرهوب الجانب يحافظ على حياد أمته بقوة السلاح عند الحاجة.

(خ)

خفي :

(ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) إبراهيم : ٣٨ يقال أخفى موضع صلاحه أي ستره وكتمه فلا يراه العدو . وأخفى نياته أي كتمها. والإخفاء هو التخفي عن نظر العدو وعن سمعه. والتدريب على الاختفاء هو تدريب الجنود على إخفاء أنفسهم عن رصد العدو وإخفاء حركتهم ونياتهم عن سمعه وعيونه ووسائل الاختفاء هي الحذر واليقظة وشبكات الغش .. إلخ.

(د)

دبر :

(ثم استوى على العرش، يدبر الأمر) يونس : ٣ دبر الأمر نظر في عاقبة ويقال دفاع مدبر أي أحكمت خطته وجرى تحصين مواضعه كما يقال هجوم مدبر بمعنى هجوم أعدت خطته سلفا واتخذت تدابير الإسناد الناري بدقة وإتقان ويقابله الهجوم الفوري.

(د)

دل :

(ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته) سبأ : ١٤ دل على الموضع الدفاعي والدلالة هو وضع علامات مميزة على الطريق تدل عليه. واستدل على الموضع الدفاعي بإشارة الدلالة أي اتخذ الإشارة دليلاً عليه فالدلالة إشارات خاصة تدل على موضع الاجتماع أو الموضع الدفاعي أو المواضع العسكرية. وأهداف الدالة هي اهداف كبيرة واضحة في الجبهة يستعان بها على الدلالة إلى الأهداف المطلوب قصفها أو رميها. يقال الدلالة بالعوارض الطبيعية أو بالدرجات ومنها عصا الدلالة وهي عصا تستعمل في الحروب الجبلية لا رؤية الأهداف المطلوبة.

(ذ)

ذب :

(وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه) الحج : ٧٣ ذب بمعنى لم يستقر في مكان واحد ويقال ذب ذبا عن وطنه أي دفع عنه. كما يقال ذب الجيش عن أرض الوطن.

(ر)

ربص:

(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) التوبة : ٥٢ انكشاف نيات العدو بيقظة وتربص تعني انتظار الفرصة السانحة أو انتظر انكشاف نيات العدو والتربص هو انتظار الفرصة المناسبة لضرب العدو واتخاذ تدبير الحذر واليقظة لمراقبة نياته. مع إكمال الاستعدادات العسكرية.

(ز)

زرع :

(قال تزرعون سبع سنين دأبًا) يوسف : ٤٧ زرع الألغام : أي حفر لها في الأرض وغطاها بالتراب، والزارع هو عسكري من صنف الهندسة أو من فصائل الفعلة في المشاة الذي يزرع الألغام أي أن الزارع هو كل عسكري مدرب على زرع الألغام.

(س)

ستر :

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم) فصلت : ٢٢ ستر الموضع الدفاعي أي أخفاه وستر الهجوم أي رمى بالمدفعية لإخفاء التقدم نحو العدو والستار هي القوة العسكرية التي تحتل مواضعها أمام القطعات المدافعة عن الموضع الأصلي وواجبها حماية القوة الأصلية في الموضع الدفاعي، ومنع العدو من استطلاع الموضع الدفاعي والحصول على المعلومات عن القطعات الأصلية. والسترة هي ما يستر العسكري ويخفيه عن أنظار العدو.

(ش)

شكل :

(قل كل يعمل على شاكلته) الإسراء : ٨٤ شاكله أي شابهه وماثله. ويقصد بالتشكيل من الناحية العسكرية القوة المؤلفة من لواء مشاة أو لواء مدفعية أو مدرع .. إلخ وهو عدة وحدات محاربة يسيطر عليها آمر. والتشكيل هو نظام الوحدة أو الوحدات الفرعية في تدريبها وقتالها يقال تشكيلات الدورية وتشكيلات السرية، وتشكيلات الفوج. ويقال أيضًا الهدف الشكلي ويقصد به الهدف الذي يماثل الإنسان في شكله.

(ص)

صعق :

(ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض) الزمر : ٦٨ صعقتهم السماء بمعنى ألقت عليهم صاعقة والصاعقة وحدات من الجيش مؤلفة من ضباط ومراتب

منتخبين من الأقوياء الأشداء، يدربون تدريبًا عيفا خاصًا. وحرب الصاعقة تعتمد على المباغتة والسرعة والاكتساح.

(ض)

ضـد :

(كلا سيكفرون نعبادتهم ويكونون عليهم صدا) مريم : ٨٢ ضده في الخصومه ونحوها. والضد من الناحية العسكرية هو المخالف والمنافي كأن نقول مدفعية ضد الدبابات أو مقاومة للدبابات ومدفعية ضد الجو أو مقامة للطائرات، أو نقول لغم ضد الدبابات وألغام ضد الأشخاص.. إلخ.

(ط)

طرد :

(وما أنا بطارد المؤمنين إن أنا إلا نذير مبين) الشعراء ١١٤ ١١٥ طرده طردا أي نحاه استخفافا به وعقابا له. وطرد الأعداء بمعنى هزمهم وساقهم أمامه مطاردا إياهم. والمطاردة صفحة من صفحات القتال تبدأ من طرد العدو من مواضعه ·حتى تقضي عليه. والطرادة يقصد بها السفينة الحربية السريعة المسلحة بالأسلحة الثقيلة.

(ظ)

ظهر :

(ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) الأنعام : ١٥١ ظهر الشئ أي بينه وبرزه بعد إخفاؤه. والمظاهرة في اصطلاح العسكريين هي تمرينات عملية يطبقها العسكريين لتعليم الآخرين نوعا من التدريب العسكري فيقال مظاهرة الدوريات. ومظاهرة السرية في الهجوم ومظاهرة الفوج.

(ع)

عتد:

(وقال قرينه هذا ما لدى عتيد) ق: ٢٣ اعتد الشئ أي هيأه وأعده. والعتاد هو عدة كل شئ ويقال عتاد الحرب هي الأسلحة والدواب وغيرها. فالعتاد يقصد به القنابل بأنواعها والأسلحة ورصاصها وصواريخ الطائرات.

(غ)

غار :

(إذا أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار) التوبة : ٤٠ الغار هو كل منخفض في الأرض وفي المجال العسكري يقصد بالغار الجمع الكثير من الناس والجيش يقال التقى الغاران أي الجيشان: والغارة هي الهجوم على العدو. والمغوار

من الرجال هو المقاتل الكثير الغارات على أعدائه والغارة هي الهجوم الفوري على العدو لإيقاع الخسائر فيه وتحطم معنوياته.

(ف)

فر :

(قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم) الجمعة : ٨ فر بمعنى هرب . وفي المجال العسكري فر الجندي أي غاب عن وحدته أكثر من عشرة أيام الفر هو حركة للفرسان يفرون ليعودوا. والكر والفر أسلوب قتال حيث يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو. فإن صمد لهم العدو أو أحسوا الضعف أعادوا تنظيمهم وكروا وهكذا يكرون ويفرون حتى يكتب لهم النصر أو الفشل.

(ق)

قذف :

(وقذف في قلوبهم الرعب) الأحزاب : ٢٦ قذف بالحجر وبالشئ قذفا أي رمى به بقوة والقاذفة يقصد بها القنابل في القوة الجوية يقال طائره أعدت لقذف القنابل على العدو. والقذاف أداة للقذف يرمي بها الشئ فيبعد مداه.

(ك)

كشف :

(لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك) ق: ٢٢ كشف الشئ كشفا : رفع عنه ما يواريه ويغطيه فأظهره والكشف هو نظام تهذيبي يراد به تكوين الشخصية البشرية بروح التعاون والنجدة والاعتماد على النفس عن طريق الرحلات والحياة في المعسكرات. وكشف الموضوع أي استطلعه وكشف الخطة علم تفاصيلها والكشاف: هو الجندي الأمامي في دورية الاستطلاع، وهناك الكاشفة وهي آلة الكشف عن ألغام العدو وتعمل بالتضائد الكهربية ويحملها جندي ويمر بها على الأرض المشتبه بوجود الألغام فيها فإذا كان هناك ألغام مزروعة صدر عن الآلة صوت خاص يدل على الألغام فيحضر جماعة من صنف الهندسة أو جماعة من فصيل الفعلة لرفع الألغام.

(ل)

لقف :

(فإذا هي تلقف ما يأكلون) الشعراء : ٤٥ ومعنى لقف الشئ لقفا تناوله بسرعة أو أخذه بفمه فابتلعه وفي المجال العسكري اللقاف أداة في السلاح يلقف الطلقة الحية إلى موضع إبرة الرمي.

(م)

منع :

(وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله) الحشر : ٢ منعة الشئ منعا أي حرمه إياه. والمانع أي الحاجز. يقال مانع الدبابات أي حاجز يحول دون عبور الدبابات والمناعة معناها الحصانة يقال موضع دفاعي منيع أي محصن.

(ن)

ناب :

(واتبع سبيل من أناب إلى) لقمان : ١٥ ناب أي رجع يقال ناب النحل إلى الخلايا. وناب إلى الله أي تاب ولزم طاعته وأناب فلانا أي أقامه مقامة ليقوم نيابه عنه بواجبه والنائب من قام مقام غيره في أمر أو عمل يقال نائب القائد، ونائب الآمر ونائب الضابط والنائب رتبه عسكرية تعتبر أعلى رتبه لضباط الصف في الجيش.

(هـ)

هبط :

(قلنا : اهبطوا منها جميعا) البقرة : ٣٨ وهبط هبوطا أي نزل وانحدر. والمهبطة جهاز كالمظلة يهبط به من الطائر ويقال : كتيبة الهابطين بالمظلات، والمهبط يقصد به مكان الهبوط يقال مهبط الطائرة.

(و)

وصي :

(وأوصاني بالصلاة، والزكاة مادمت حيًا) مريم : ٣١ وصى إليه وله شئ أي جعله له أو عهد إليه أوامره به وفرضه عليه. والوصايا في المجال العسكري تلك التي تصدر عن القيادة العامة أو من إحدى القيادات الكبرى إلى الجيش، وفيها هدف القيادة والواجبات التي يقتضي تنفيذها. وتكتب بشكل يترك الحرية الكاملة للقائد في أسلوب التنفيذ، وهي بذلك تختلف عن أوامر الحركات لأن الأوامر تكتب بشكل حازم لا يترك الحرية الكاملة للقائد أو الآمر. وتصدر وصايا الحركات اعتياديًا للقيادات الكبيرة أو عندما يكون موقف العدو غير واضح بحيث يمكن إصدار أوامر جازمة على أساس وضوح المعلومات من العدو.

(ى)

يقظ :

(وتحسبهم أيقاظًا وهم رقود) الكهف : ١٨ . يقظ من نومه ونحوه ويقاظة صحا وانتبه للأمر وفطن إليه، والقائد اليقظ الذكي الفطن الحذر واليقظة ميزة من ميزات العسكري الذي لابد له من التحلي بها.

المراجـع

* القرآن الكريم
* إبراهيـم النحـاس، مختصـر سياسـة الحـروب الهرشمـي، مجلـة الحـرس الوطني العدد الثاني، السنة الأولى، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م، الرياض.
* أحمد إبراهيم خضر، علم الاجتماع العسكري، دار المعـارف، القـاهرة، ١٩٨٠م.
* أحمد أمين، فيـض الخـاطر، ج٩، ط١، مكتبـة النهضـة المصريـة، مصـر، ١٩٥٥م.
* أحمد زكـي بـدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعيـة، مكتبـة لبنـان، بيروت، ١٩٧٧.
* أحمد شـلبي، الجـهاد والنظـم العسـكرية في الفكـر الإسـلامي. ط٢، دار النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.
* أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار القلم بيروت، بدون تاريخ.
* أحمد نار، القتال في الإسلام، الدار السعودية للنشر، ط١، جدة، ١٣٨٩هـ.
* أسامة الألفي، حقوق الإنسان وواجباته في الإسلام، الهيئة المصريـة العامـة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠م.
* إسماعيل محمد، نظريـة الحـرب في الشـريعة الإسـلامية، مكتبـة الفـلاح، الكويت.
* إسماعيل محمد، نظريـة الحـرب في الشـريعة الإسـلامية؛ مكتبـة الفـلاح، الكويت، ١٤٠١هـ.
* ابـن القيم الجوزيـة، أحكـام أهـل الذمـة تحقيـق صبحـي الصـالح وتقديـم محمد حمد الله ج١. ط. ١٩٦١م.
* ابـن تيميـة، اقتضـاء الصـراط المستقيم، تحقيـق محمـد خـان الفقـي، ط٢، ١٩٥٩.
* ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار نهضة مصر، القاهرة.
* ابن كثير، دار المعرفة، تفسير سورة الحجرات، ج٣.
* ابن كثير، فضائل القرآن، القاهرة، ١٣٤٧هـ.
* ابـن منظـور، قـاموس لسـان العرب، دار المعـارف، القـاهرة، بـدون تـاريخ، مادة حرب.
* ابن منظور، لسان العرب، مادة حضر، ج٢، دار المعارف، القاهرة.
* البلازري، فتوح البلدان، بدون ناشر.

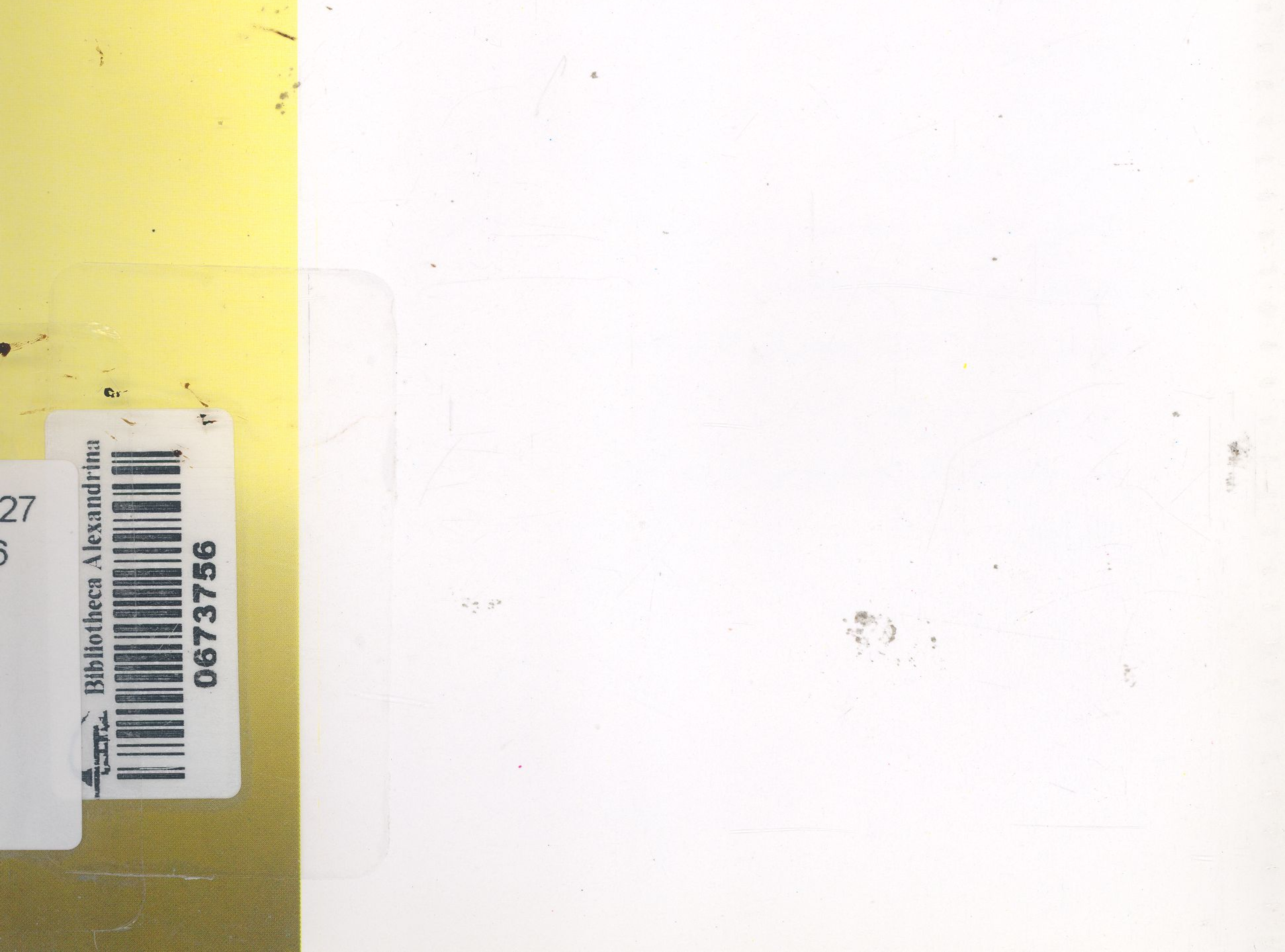
* الزمخشري، تقسيم الكشاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط٢، القاهرة، ١٣١٨هـ.
* السيد عبد الحافظ عبد ربه، الثورة الاجتماعية في الإسلام، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٢.
* السيد قطب، في ظلال القرآن، ج٣٤، مطبعة أولى عيسى الحلبي.
* السيد محمد رشيد رضا، تفسير المنار، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
* القاضي أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، القاهرة ١٣٧٠.
* المعجم العسكري للجيش العربي السوري.
* المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت.
* المنجد في اللغة والإعلام، دار المشرق، بيروت، ط٣٤، ١٩٩٤.
* انجيل متى الإصحاح العاشرة عدد ٢٥ وما بعدها.
* تفسير القرطبي، الجزء الأول، تفسير سورة البقرة، دار الغد العربي.
* جاد الحق علي جاد الحق، مثل من طرائق الدعوة، الأمانة العامة للجنة العليا للدعوة الإسلامية.
* شمس الدين ابن قيم الجوزية، الجواب الكافي، تعليق محمود عبد الوهاب فايد، مطبعة صبيح، الأزهر، ١٩٥٨.
* صحيح البخاري
* صحيح مسلم
* عباس العقاد، التفكير فريضة إسلامية، مطابع مؤسسة دار الهلال المصرية مصر.
* عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف القاهرة، ط٥، ١٩٩٠م.
* عبد الحميد متولي، مبادئ نظم الحكم في الإسلام، ط٤، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٨م.
* عبد الرحمن العيسوي، سيكولوجية التنشئة الاجتماعية، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية ، ١٩٨٥م.
* عبد العزيز كامل، الإسلام والتفرقة العنصرية، دار المعارف، مصر ١٩٧٠.
* عبد الفتاح محمد العيسوي، حقوق الإنسان في الإسلام، مجلة الوعي الإسلامي عدد ٤٣١، ٢٠٠١م.
* عبد الله بن محمد بن حميد، الإسلام يأمر بالقوة، مجلة الحرس الوطني، العدد ١، السنة الأولى، الرياض، ١٩٩٨م.

* عبد المنعم الحنفي. موسوعة علم النفس والتحليل النفسي. مكتبة مدبولي. القاهرة. ١٩٧٨م.
* عبد الوهاب خلاف، السياسة الشرعية، القاهرة، ١٩٧٨م.
* عثمان جمعة، منهج الإسلام في الحرب، مكتبة الأرقم، الكويت، ١٤٠٢هـ.
* عثمان موافي، منهج النقد التاريخي الإسلامي، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ١٩٩٤م.
* عفيف عبد الفتاح طباره، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٧٣م.
* علي بدوي ، مبادئ القانون الروماني، ج١، ط٢، دار العلم، تونس.
* علي عبد الرازق حلبي، قضايا علم الاجتماع المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٧٩م.
* فرج عبد القادر طه، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار سعاد الصباح، ط١، الكويت، ١٩٩٣م.
* لسان العرب، دار المعارف.
* ماجد أحمد المؤمن، الإسلام دعا إلى التراحم بين الناس، مجلة الوعي الإسلامي، عدد ٣٩١.
* مجلة الأزهر، القاهرة، المجلد العشرون.
* مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، القاهرة، ١٩٨٣م.
* مجمع اللغة العربية، المعجم الوجيز، القاهرة، ١٩٩١م.

محمد أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، الدار السعودية للنشر، جدة، ١٤٠١هـ.
* محمد ابن ناصر الجعوان، القتال في الإسلام، ط١، ١٤٠١هـ.
* محمد الغزالي، تأملات في الدين والحياة، ط٣، مطبعة السعادة، مصر ، ١٩٦٢.
* محمد الغزالي، معركة الصحف، ط٢، دار الكتب الحديثة، مصر، ١٩٦٢.
* محمد بهي الدين سالم، الإسلام الدين والدولة، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة ، ١٩٩٥.
* محمد جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في الاستطلاع والأمن والمقاومة الجاسوسية، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٠.
* محمد جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية.
* محمد جمال الدين محفوظ، النظرية الإسلامية في العقيدة العسكرية، دار الاعتصام، القاهرة.

* محمد ذكي العشماوي، فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت ، ١٩٨١.
* محمد طلعت عيسى، البحث الاجتماعي ومبادئه ومناهجه، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة، ١٩٦٣م.
* محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
* محمد عبده، الإسلام والنصرانية، مطبعة المنار، مصر ، بدون تاريخ.
* محمد علي محمد، المراجع في مصطلحات العلوم الاجتماعية، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية ، ١٩٨٥م.
* محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة، ١٣٧٨هـ.
* محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، ط٣، دار الكتاب، بيروت، ١٩٦٧.
* محمود شتلوت ، القرآن والقتال، القاهرة، ١٩٥١م.
* محمود شلتوت، القرآن الكريم والقتال، مطبعة الكتاب العربي، القاهرة.
* محمود شلتوت، توجيهات الإسلام، مطبوعات الإدارة العامة للثقافة الإسلامية، ١٩٥٩.
* محمود شيث خطاب، إدارة القتال في الجهاد الإسلامي، دار الفكر، ١٣٩٨هـ.
* مراد وهبة ويوسف كرم، المعجم الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، ط٢، القاهرة، ١٩٧١م.
* مصطفى خالد وعمر فروخ، التبشير والاستعمار، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٤.
* معجم اللغة العربية، معجم المصطلحات الطبية، ج١، القاهرة، ١٩٨٥.
* منير البعلبكي، المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٦م.
* ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٠م.
* نجيب الارمنازي، الشرع الدولي في الإسلام، دار المعارف، القاهرة بدون تاريخ.
* نشرة المصطلحات العسكرية للقيادة العربية الموحدة، ١٩٦٦.
* يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.

الفهـرس


Bibliotheca Alexandrina
06773756